

عشرون عاما على اندلاع الحريق الكبير !

مسارات التحولات في التفكير الاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث الحادي

عشر من أيلول/سبتمبر 2001

د. صالح ياسر

مقدمة

لا يمكن فهم طبيعة التحولات التي شهدتها التفكير الاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية خلال العقدين الأخيرين دون ربط الأمر بما حدث في 11 أيلول/سبتمبر 2001¹. وبداية لا بد من القول أن هذه الأحداث وتداعياتها شكلت منذ لحظة وقوعها، واستمرت، تشكل الأحداث الأهم في المشهد السياسي العالمي. ويمكن السبب في ذلك أنها أحدثت أثراً بعيداً وعميقاً في العلاقات الدولية الى درجة دفعت بعض المتخصصين بالقضايا الاستراتيجية الى القول بأن معالم "علاقات دولية جديدة" بدأت تتبلور وأن عمقاً جديداً لما يسمى بـ "النظام الدولي الجديد" بدأت غماره وتداعياته على نحو مفصلي وتاريخي ونوعي. بل ان هناك من ذهب الى أبعد من ذلك بحيث أطلق على الفترة التي تلت 11 أيلول/سبتمبر 2001 "عصر الرعب"².

ولكن كان للمفكر الاقتصادي المصري الراحل سمير أمين رأي مخالف. فهو وإن كان قد اعتبر الحادي عشر من ايلول/سبتمبر 2001 "حدثاً مهماً في التاريخ"، إلا انه رأى ان هذا الحدث لم يشكل "تحولاً تاريخياً". ويبرر مقاربتة هذه في واقع ان 11 سبتمبر 2001 "لم يخدم إلا إتاحة الفرصة للسلطات الامريكية كي تسرع تطبيق سياسة جرى تقريرها مسبقاً. (فقد) لعب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر دوراً مماثلاً لدور حريق الرايخستاغ في زمانه، حيث سمح لهتلر بتسريع سياسة التصفية العنيفة للمعارضة الداخلية، والتحصير للحرب"³.

في حين رأى المفكر الموريتاني السيد ولد اباه أن أحداث 11 سبتمبر لم تكن بداية لحقبة جديدة ولا هي قطيعة مع نظام دولي مندثر، وإنما هي (في ما وراء، ومن حيث طابعها المثير المفاجئ)، مظهر دراماتيكي لأزمات ثلاث كان يعاني منها الوضع الدولي في مستويات ثلاثة وثيقة الترابط وهي⁴:

¹ ثمة كم هائل من الكتب والدراسات والابحاث التي تحدثت حول هذه الاحداث واثارها وتداعياتها. لمزيد من التفاصيل قارن على سبيل المثال: نعيم تشومسكي، الصدمة، 9/11، الحادي عشر من أيلول، ترجمة: سعيد الجعفري (دمشق: دار الكتاب العربي، 2002)؛ كذلك: فريد هاليداي، ساعتان هزتا العالم، بعد 11 سبتمبر 2001: الأسباب والنتائج، ترجمة: عبد الاله النعيمي (بيروت: دار الساقى، 2002)؛ كذلك: يفجيني بريماكوف، العالم بعد 11 سبتمبر وعزو العراق، ترجمة: عبد الله حسن (الرياض: مكتبة العبيكان، 2004)؛ كذلك: السيد ولد أباه، عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001، الإشكالات الفكرية والاستراتيجية (بيروت: الدار العربية للعلوم، 2004)؛ كذلك: إينيا سيورامونية، حروب القرن الواحد العشرين ومخاوف ومخاطر جديدة، ترجمة: أنطوان أبوريد (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2007)؛ كذلك: أحمد بيضون وآخرون، العرب والعالم بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2004)؛ كذلك: محمد قدرى سعيد، وعبد المنعم سعيد، الأفكار والأسرار، 11 سبتمبر 2001 (القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، 2002)؛ كذلك: أندرياس فون بيلوف، المخابرات الأمريكية والحادي عشر من سبتمبر، ترجمة: عماد بكر (القاهرة: مكتبة الشروق، 2004). هذا إضافة الى كم هائل من الاعمال باللغات الاجنبية الأخرى.
² لمزيد من التفاصيل انظر:

Talbot Storbe and Chanada Nayan, *Age of terror: America and the World after September 11*, New York: Basic Books. 2001.

³ سمير أمين، ما بعد الرأسمالية المتهاكلة. ترجمة د. فهمية شرف الدين و د. سناء أبو شقرا، ط 1 (بيروت: دار الفارابي، 2003)، ص 11. وفيما يخص "حريق الرايخستاغ" الوارد في هذه الاقتباس فهو انه في السابع عشر من شباط/فبراير من سنة 1933 اشتعل حريق في مبنى الرايخستاغ (البرلمان) الألماني ونُسب الحريق إلى "مخطط شيوعي". ولكن الحريق كان في الواقع عملاً مدبراً من النازيين، غير أنهم ألصقوا التهمة بالمعارضين. واتخذ هتلر هذا العمل المدبر للتضييق على الألمان المعارضين للحكم، وخاصة الشيوعيين للتخلص منهم.

⁴ د. سيد ولد أباه، ما الذي تغير في العالم بعد 11 سبتمبر 2001؟، مجلة أفكار على الانترنت، العدد 2/ أكتوبر - نوفمبر 2002. متاح على الانترنت على الرابط التالي: <http://www.afkaronline.org/arabic/archives/oct-nov2002/ouldbaa.html>

● **الأزمة الأولى: العلاقات الدولية وما عاشته من تطورات بعد انتهاء حقبة "الحرب الباردة"** والتي لم تؤدّ إلى تشكّل نظام دولي بديل مهما كان شكله، سواء كان نظام الأحادية القطبية كما تتبأتّ جلّ الدراسات الإستراتيجية، أو تعددية جديدة محورها الأنظمة الإقليمية الاقتصادية، أو النظام العالمي المستند للشرعية والضامن للأمن والحريات كما كرّر الرئيس الأمريكي الأسبق (جورج بوش الأب) في غمرة "انتصار" بلاده. فخارطة العلاقات الدولية بعد انتهاء "الحرب الباردة" بقيت تتأرجح بين اتجاهات متباينة عصية على الحسم: قوّة أحادية (الولايات المتحدة) فاقدة لآليات الهيمنة الفعلية على باقي مناطق العالم (فشل استراتيجية الأنظمة الإقليمية الحليفة وإخفاق نهج تفعيل الشرعية الدولية من خلال نظام الأمم المتحدة)، بقدر ما هي عاجزة عن تحمّل مسؤولياتها إزاء أزمات عالم لا منافس لها فيه، وعلى رأس هذه الأزمات الحروب الأهلية والإقليمية التي تزايدت وتيرتها وتفاقت فظاعتها أكثر من حقبة الحرب الباردة. فزلزال 11 أيلول/سبتمبر من هذا المنظور هو تعبير عن مازق هذه المعادلة الدولية المثيرة.

● **الأزمة الثانية: ديناميكية العولمة التي يراها (ولد أباه) انها أضحت حقيقة لا مراء فيها، من حيث توحد السوق العالمية وأنظمة الاتصال، لم تفرز أطرها المؤسسية سياسيا ومجتمعيا. ففي الوقت الذي مازالت فيه الدولة القومية الوحدة الأساسية والمحورية لضبط وإدارة الرهانات السياسية والمجتمعية، تقلص نفوذها الفعلي في المسارات الاقتصادية وفي حركية المجتمع، وغدت إما ضيقة محدودة إزاء تحديات كونية وإقليمية تتجاوزها، أو جدّ واسعة لا حاجة إليها في التعامل مع مقتضيات محلية أصبحت من مشمولات هياكل المجتمع المدني التي افتكت سلطات وصلاحيات متزايدة.**

● **الأزمة الثالثة: وتتمثل بغياب أرضية ثقافية من شأنها توفير مضمون لايدولوجيا "النظام الدولي الجديد" الذي بشرت به الأدبيات الأمريكية، أو توفير إطار مرجعي لديناميكية العولمة بطبعها الرأسمالية في ما وراء طابعها التقني - الاقتصادي. ودللت التجربة الملموسة انه ليس بإمكان الخطاب الليبرالي المتطرّف تقديم هذا المضمون المطلوب لما يكتنفه من غياب مفاهيم مثل العدالة والمساواة، بقدر ما أن خطاب تعميم الديمقراطية وحقوق الإنسان تحوّل إلى مجرد أدوات لممارسة التدخّل الانتقائي في شؤون البلدان بحسب المصالح الأنوية وتحت شعارات من قبيل "التدخل الانساني" ⁵.**

خلاصة القول، انه يمكن القول أن التحليلات التي قدمت لتفسير اتجاهات خارطة العالمية بعد 11 أيلول/سبتمبر 2001 قد توزعت إلى عدة مسالك متباينة ⁶:

الأول: ذهب إلى أن "زلزال 11 سبتمبر" لم يكن نقمة على الولايات المتحدة، بل كان على العكس فرصة طال توقعها للقطب الدولي المهيمن للقضاء على البقية الباقية من نقمة الاحتجاج والاعتراض على استفزاده بالأوضاع الدولية. بل ان هناك من رأى انها مكيدة مدبرة من الدوائر المخابراتية والأمنية لإعداد الأرضية الملائمة لإحكام الهيمنة الأمريكية على العالم بزّمته بـ "اختراع" خطر الإرهاب بديلا من "ملكة الشر الحمراء" المندثرة. فقد اعتبر هؤلاء أحداث 11 أيلول/سبتمبر تكريسا نهائيا للمسار البارز منذ نهاية "الحرب الباردة"؛ أي مشهد الهيمنة الأمريكية الأحادية الجانب الذي كان يحتاج إلى ذريعة الخطر الخارجي كي يوفر الغطاء الاستراتيجي والفعالية الهجومية، بحيث وجدت الإدارة الجمهورية

⁵ لمزيد من التفاصيل حول مفهوم التدخل الانساني قارن: خالد حساني، بعض اشكاليات التدخل الانساني، مجلة "المستقبل العربي"، العدد 425/تموز 2014، ص 41 ولاحقا؛ محمد يعقوب عبد الرحمن، التدخل الإنساني في العلاقات الدولية (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٤).

⁶ لمزيد من التفاصيل قارن: لزه وناسي، الاستراتيجية الأمريكية في اسيا الوسطى وانعكاساتها الإقليمية بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية، فرع: العلاقات الدولية والدراسات الاستراتيجية، كلية الحقوق/قسم العلوم السياسية، جامعة الحاج لخضر/باتنة - الجزائر، السنة الدراسية 2008/2009، ص 51 - 52 ؛ كذلك: د. سيد ولد أباه، ما الذي تغير في العالم بعد 11 سبتمبر 2001 ؟، مصدر سابق.

برئاسة (جورج بوش الابن) في الأحداث المذكورة فرصة لتجسيد المشروع الإمبراطوري للهيمنة "The Empire of Hegemony" ذي الخلفية الأيديولوجية المحافظة، القائمة على ثلاث ركائز أساسية هي: التفوق العسكري العالمي، الأصولية الدينية والنيوليبرالية الاقتصادية⁷.

وفي سياق متصل بالمفاهيم النظرية المطروحة لتفسير الأحداث وتأثيراتها على أنماط العلاقات الدولية، تشير بعض الدراسات إلى أنه - ومن منظور إستراتيجي- فإن هذه الأحداث ساهمت في ملء الفراغ الاستراتيجي الناجم عن تفكك الاتحاد السوفيتي. فالولايات المتحدة الأمريكية التي ترى في وجود عدو خارجي من ثوابت سياستها شكلت لها أحداث 11 أيلول/سبتمبر/2001 فرصة لتثبيت "عدو جديد" في منظومة التفكير الأمريكي، كبديل موضوعي لـ "العدو السوفيتي"، فالإرهاب الدولي "International Terrorism" أضحى متغيراً أساسياً لبناء عقيدة إستراتيجية للتحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة، وبلورة أدبيات نظرية ومفاهيمية جديدة وأطر تفسيرية للتفاعلات العالمية بعد هذه الأحداث. وتلخص عبارة "من الحرب الباردة إلى الحرب ضد الإرهاب" أنماط التوجهات الإستراتيجية الأمريكية المستقبلية. كما تبيّن إلى أي مدى قادت هذه الأحداث إلى سد فجوة الفراغ الإستراتيجي "Strategic gap" لفترة ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وبناء على ذلك، فالحرب الشاملة ضد الإرهاب "Global war on terror" أصبحت المفهوم الأكثر مركزية في الخطاب الاستراتيجي الأمريكي لما بعد 11 أيلول/سبتمبر 2001⁸.

الثاني: يرى في الأحداث تحقّقاً لمشهد "صراع الحضارات"، وانفجار الخصوصيات الثقافية في وجه الحضارة المهيمنة، وما إلى ذلك من المستنسخات الشائعة منذ أطروحة "صدام الحضارات"⁹. فأطروحة صدام الحضارات "The Clash of Civilisations" التي طرحها (صمويل هنتنغتون) Samuel Huntington جاءت كمقاربة لتفسير نمط النزاعات في العلاقات الدولية بعد نهاية "الحرب الباردة" والتي تنطوي على تحليل لشكل الصراعات التي ستكون - حسب هنتنغتون - دامية بين كيانات ثقافية متميزة وحضارات مختلفة من حيث البنى الثقافية.

الثالث: ذهب إلى اعتبار "الزلازل" الذي هزّ الولايات المتحدة والعالم معها، بداية حقبة جديدة من العلاقات الدولية، سمتها الأساسية تقلص قوة وهيمنة العملاق الأمريكي في عالم تزايدت فيه بؤر التوتر، وبرزت تحديات أمنية لا تتوفر للقوة العظمى وسائل فعالة لاحتوائها، ومن ثم فإن أحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001 - من هذا المنظور- هي هزيمة لفكرة الهيمنة الأمريكية، وبداية علو صوت "الجنوب"، ولو بالعنف الأعمى والإرهاب المنفلت من كل قيد.

وبمزيد من التفصيل، يرى هذا الاتجاه في هجمات 11 أيلول/سبتمبر 2001 بأنها كانت "ردة فعل همجية" من طرف "العالم الثالث" على الحداثة الغربية والقيم الغربية، التي تمثل العولمة أكبر تجلياتها المعاصرة. فالأوضاع المعقدة التي يعيشها "العالم الثالث" ولدت شعوراً بالإحباط لدى فئات واسعة من شعوبه والتي باتت ترى في هذه الأوضاع نتاجاً لسياسات الدول الغربية التي أرست التخلف والفقر والعنف فيها، وخاصة بسبب إفراسات ظاهرة العولمة بطبعتها الرأسمالية التي زادت من توسيع الهوة بين "العالم المتقدم" و "عالم الجنوب المتخلف". وكذلك على المستوى الثقافي، ليس بمعنى أطروحة صدام الحضارات والثقافات والديانات، وإنما بسبب غياب أرضية ثقافية من شأنها توفير مضمون أيديولوجيا "النظام الدولي الجديد" الذي تروج له الأدبيات الأمريكية، أو توفير إطار مرجعي لديناميات العولمة في ما وراء طابعها التقني-الاقتصادي.

⁷ انظر: السيد ولد أباه، عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001: الإشكالات الفكرية والإستراتيجية...، مصدر سابق، ص 12.

⁸ Michael Cox , *From the Cold War to the War on Terror*, in : John Baylis and Steve Smith (eds), *The Globalisation of World Politics*, Oxford University Press, Third Edition, 2004, p p. 152-155.

⁹ قارن: صامويل هنتنغتون، صدام الحضارات- إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت لايب (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1998).

وليس بإمكان الخطاب الليبرالي الجديد تقديم هذا الإطار الأيديولوجي لما يكتنفه من تناقضات بين النظرية والتطبيق، بحيث تحوّل الخطاب الليبرالي إلى مجرد أداة لممارسة التدخل الانتقائي في شؤون البلدان بحسب المصالح الأنية. فالإرهاب الجنوبي - من هذا المنظور - هو تعبير حاد وجذري عن تقاوم أزمة التواصل بين الفضاءات التي يتشكل منها عالم اليوم فيما وراء وهم القرية الكونية الواحدة المنسجمة¹⁰. فهذا الاتجاه يفسر الهجمات من زاوية اشتداد حالات الغضب في الدول الفقيرة من السياسات الاقتصادية الظالمة والمجحفة للولايات المتحدة الأمريكية والمراكز الامبريالية الأخرى والمؤسسات المالية والنقدية الدولية كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية.

وعلى مستوى الولايات المتحدة، شكلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 منعطفا خطيرا في مسار الإستراتيجية الأمريكية. فبعد الهجوم على برج التجارة العالمية واستهداف مبنى البنتاغون بطائرات مدنية، ما شكل تطورا نوعيا في تهديد الأمن الوطني والمصالح الأمريكية في الداخل، الامر الذي جعل المسؤولين الأمريكيين يعيدون رسم استراتيجياتهم العالمية، وعلى رأسهم الرئيس بوش الابن ورفيقه الرئاسي الجمهوري، وما نتج لاحقا دفع الكثير من الأكاديميين والباحثين المهتمين بهذه القضايا إلى الكلام عن "مرحلة ما بعد 11 سبتمبر"¹¹. بل ذهب آخرون بعيدا للحديث عن تبلور مرجعية فكرية للخطاب الاستراتيجي الأمريكي ما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001¹².

ومن المفيد الإشارة هنا ان بعض الباحثين والمتخصصين بالشؤون الاستراتيجية، وعند وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، أجرى مقارنة بين تلك الأحداث، وما جرى من قصف قامت به الطائرات اليابانية لـ (بيرل هاربر Pearl Harbor)¹³ في 7 كانون الأول/ديسمبر 1941. ولكن هذه المقاربة تهتم بمظاهر الأشياء وليس بجوهرها، فالحدثان كلاهما أوقعا إصابات كبيرة، وانتهاكا للسيادة الأمريكية، وأحدثا مفاجأة شديدة. ولكن فيما عدا ذلك تصبح المقارنة بين الهجومين عمل لا طائل منه، إذ أن الامر الأهم هو التركيز على ما طرأ من تغييرات عالمية، وعلى طريقة تعامل الولايات المتحدة مع التهديدات الجديدة الصادرة من "أعداء مجهولين" وليس معروفين، كما في المثال الياباني.

لقد أحدث تفجير القنبلة الذرية، يوم 6 أغسطس 1945، تحولا كبيرا في مسار الحرب من منظور التخطيط الاستراتيجي، وقد كان ذلك التحول أكثر وضوحاً على المستوى التكتيكي، حيث أوجدت الطاقة التدميرية والإشعاعية للسلاح الذري بيئة ميدانية يصعب فهمها، واكتسبت تداعياتها على المدى الطويل أهمية بالغة أيضاً، وأحدثت تلك التحولات ثورة في الشؤون الاستراتيجية، مما جعل الرؤساء الأمريكيين المتعاقبين يعملون على تطوير استراتيجية تنطوي على توازن فعال بين القوتين التقليدية والنووية. وتطلب الأمر إعادة النظر في العقيدتين التكتيكية والعملية، والهيكل التنظيمي للقوات، وتخصيص الموارد التي ظلت متبعة على مدى حربيين عالميين، وذلك في ضوء المقدرات النووية الأمريكية ومقدرات خصم يمتلك أسلحة نووية. وكان هذا التحول هو الذي تحكّم بالصراع الأيديولوجي والعسكري بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي السابق على مدى عدة عقود من الزمان.

¹⁰ السيد ولد أباه، عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001...، المرجع السابق، ص17

¹¹ قارن على سبيل المثال: بطرس غالي، العلاقات الدولية بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001، "السياسة الدولية"، العدد 147، يناير 2002؛ كذلك: السيد ولد أباه، عالم ما بعد 11 سبتمبر، الإشكالات الفكرية والإستراتيجية، مصدر سبق ذكره؛ كذلك: يفجيني بريماكوف، العالم بعد 11 سبتمبر...، المصدر السابق؛ كذلك: برهان غليون، العرب وعالم ما بعد 11 سبتمبر (دمشق: دار الفكر، 2004)؛ كذلك: جورج قرم، عالم القطب الأوحد واتجاهاته، العرب والعالم بعد 11 سبتمبر (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، 2004)؛ كذلك: عبد الغني عماد، العرب والعالم بعد 11 سبتمبر، المقاومة والإرهاب في الإطار الدولي لحق تقرير المصير (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، 2004).

¹² قارن على سبيل المثال: ناظم عبد الواحد الجاسور، المرجعية الفكرية للخطاب الاستراتيجي الأمريكي ما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 (بيروت: دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، 2006).

¹³ بيرل هاربر (بالإنجليزية: Pearl Harbor أي ميناء اللؤلؤ) ميناء وقاعدة عسكرية امريكية، يقع على جزيرة أوهاو، وينتمي إلى جزر هاواي، معروف بكونه كان هدفا لهجوم مباغت في 7 كانون الأول/ديسمبر 1941 من اليابان، بسبب الحصار الاقتصادي الذي كانت تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية. لمزيد من التفاصيل قارن:

في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، حدث تحوّل آخر بعد دخول الإرهاب كبعد ثالث لا يقل أهمية في المعادلة الاستراتيجية التقليدية والنووية لما بعد عام 1945، فقد واجهت إدارة الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) تحدياً مماثلاً لما واجهه المخططون الاستراتيجيون في مستهل "العصر النووي"، وتمثل ذلك التحدي في صياغة سياسة دفاعية فعّالة لعالم شهد تغييرات جذرية في السابق بالأسلحة الذرية وحالياً بالإرهاب، فكانت (استراتيجية الأمن القومي لعام 2002)، القائمة على مفهوم "الحرب الاستباقية"، أو ما أطلق عليه لاحقاً "عقيدة بوش"، وهي السياسة الدفاعية التي جرت صياغتها في البداية للتعامل مع هذه البيئة الجديدة ثلاثية الأبعاد. ولهذا يمكن القول إن أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أحدثت تحولاً كبيراً في التخطيط الاستراتيجي لا يقل أهمية عما حدث من تحولات عام 1945.

فقد صرح الرئيس الأمريكي الأسبق (جورج دبليو بوش) أن الدفاع الأمريكي اعتمد خلال معظم القرن الماضي على عقيدتي الردع والاحتواء في حقبة "الحرب الباردة"، وما زالت هاتان العقيدتان تطبقان في بعض الحالات، ولكن التهديدات الجديدة تتطلب أيضاً التفكير بصورة جديدة. إن أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 سمحت للولايات المتحدة بأن تعيد ترتيب خارطة العالم بما يتلاءم مع فلسفتها السياسية لتنميط التطورات العالمية حسب رؤيتها، وهذا ما صرح به وزير الدفاع الأمريكي الأسبق الراحل دونالد رامسفيلد (Donald Rumsfeld) بعد يومين من هذه الأحداث لوكالات الأنباء العالمية حيث قال: "إن الدماء الأمريكية التي زُهِقت في الأحداث ستحقق أهدافاً عظيمة للولايات المتحدة على مدى قرن كامل!".

ويمكن حصر أهم ما يميز إدارة بوش الابن هو بروز التيار اليميني المتطرف بشقيه؛ السياسي المعروف إصطلاحاً بـ "اليمن المحافظ الجديد"، والديني المعروف إصطلاحاً بـ "اليمن المسيحي الجديد"، وتوفر الأجواء لتبني أفكارهم والترويج لها من قبيل "الحرب الإستباقية". وتقتضي الإشارة هنا إلى أن النزعة المحافظة برزت إبان "الحرب الباردة" وتعزز حضورها أثناء الحملة الانتخابية للرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان (1981-1989). وينطلق هذا التيار الديني - السياسي من مبدأ تقسيم العالم إلى "معسكر الخير" في مقابل "معسكر الشر"¹⁴.

ومن جانب آخر فإن أحداث 11 أيلول/سبتمبر دفعت الإدارة الأمريكية في عهد بوش الابن على اعتماد أجندة متشددة في علاقاتها مع العالم، من بين عناصرها الآتي¹⁵:

1. تقوم العلاقات الدولية على القوة وليس على القانون.
2. الولايات المتحدة هي القوة العظمى الأولى، وعليها فرض رؤاها ومصالحها على العالم.
3. على العالم الاستفادة من تبني القيم الأمريكية، لأنها النموذج المتفوق دولياً.
4. على الولايات المتحدة الاعتماد على قوتها المتفوقة لبسط سيادتها على العالم.

إن هذه هي الرؤية التي يتشبث بها "المحافظون الجدد"¹⁶ كأيديولوجيا شاملة حاولوا ويحاولون فرضها في السياسة الخارجية الأمريكية. وهناك من يرى أنها أقرب إلى الداروينية (مذهب داروين في أصل

¹⁴ أحمد باي، السياسة الأمريكية بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 وقضية التحول الديمقراطي في العالم العربي، "دراسات استراتيجية"، العدد 11، مركز البصيرة للبحوث (الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع، 2010)، ص 50. ومن الجدير بالذكر أن مفهوم "محور الشر" جاء كغطاء دعائي وأيديولوجي يغلف الأهداف الاستراتيجية للولايات المتحدة في العالم بعد انتهاء الحرب الباردة.

¹⁵ لمزيد من التفاصيل قارن: أبو بكر المبروك بشير أبو عجيبة، أثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر في السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية تجاه منطقة الشرق الأوسط (2001-2008)، بحث مقدم إلى كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية - قسم العلوم السياسية/ جامعة الخرطوم لنيل درجة الدكتوراه في العلوم السياسية، 2010، ص 359.

¹⁶ لمزيد من التفاصيل قارن: ارون ستلزر، المحافظون الجدد، ترجمة فاضل جنكر (الرياض: دار العبيكان للنشر، 2004)؛ كذلك: يونس الجمرة، الرؤية العقائدية: الجيل الثاني من المحافظين الجدد في السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط (الاردن: مركز الشرق الدولي للدراسات والابحاث، 2009)؛ كذلك: ستيفن هالبر و جوناثان ألارك، التفرد الأمريكي، المحافظون الجدد والنظام العالمي، ترجمة: عمر الأيوبي (بيروت: دار الكتاب العربي، 2004). والنص الأصلي للكتاب بالانكليزية هو:

الأنواع، الذي يعتمد نظرية البقاء للأقوى) ولكن هذا النوع يفضل أهمية التعاون بين الأنواع من أجل البقاء، والمقصود هنا أن التفوق الأمريكي في العلاقات الدولية يقود إلى الهيمنة الكاملة دون منازع.

هكذا إذن بدأت "بشائر" حقبة ما بعد الحادي عشر من أيلول 2001 تهطل محملة بالتصور الأمريكي لتنميط العالم. وكل الإجراءات وخطب الساسة الأمريكيين الكبار، بما فيهم الرئيس جورج دبليو بوش (George Walker Bush)، بيّنت أن الولايات المتحدة ماضية في استكمال تصورها الاستراتيجي لهذه المرحلة¹⁷.

وقد كان خطاب "حال الاتحاد" الذي ألقاه (بوش) في 29 كانون الثاني 2002 قد وضع الإطار العام للوجهة الجديدة بإبقائه الباب مفتوحاً على مصراعيه لمواصلة الولايات المتحدة لـ "الحرب على الإرهاب"، فقد أشار إلى: "إن هدفنا الثاني هو منع الأنظمة التي ترعى الإرهاب، عن تهديد الولايات المتحدة أو أصدقائها أو حلفائها بأسلحة الدمار الشامل" وأضاف إلى ذلك نحته لمفهوم "محور الشر Axis of Evil" وحدد إيران والعراق وكوريا الشمالية كـ "محور للشر"¹⁸ مدشناً جبهة جديدة، بإضافة هذه الدول وقائمة إضافية من "الدول المارقة Rouge States"¹⁹ والتي تنتج أسلحة الدمار الشامل، إلى من ستطولهم اليد الطويلة للولايات المتحدة!

وهكذا كان حال الخطاب السائد في الذهنية الأمريكية خلال هذه الفترة، إنه "خطاب أيديولوجي" بامتياز سيطرت عليه فكرتان أساسيتان هما "الإرهاب" و "صراع الحضارات".

وهاتان الفكرتان أيديولوجيتان زانفتان، إذ انهما لا تعبران عن الحقيقة ولا تستهدفانها، بل هما جزء من الترسانة الأيديولوجية التي يلجأ إليها صانع القرار الأمريكي من أجل إنتاج سياسات في الداخل والخارج يتعذر تمريرها وتبريرها وتسويقها دون غطاء أيديولوجي كثيف يحجب الواقع بمجموعة من الدعاوى التي تنسب - ظاهرياً على الأقل - بقيمة أخلاقية ومعرفية وإنسانية.

وتجنباً للالتباس لا بد من التذكير بأن لكل من هاتين الفكرتين وظيفة مختلفة عن الأخرى، ولكنهما في النهاية تؤديان وظيفتين متكاملتين. فبينما تهيي فكرة "صراع الحضارات" الذهنية في الداخل الأمريكي لتقبل وضع تكون فيه الولايات المتحدة في حالة نزاع مع مجموعة كبيرة من دول العالم، فإن فكرة "الإرهاب" أو بعبارة أدق "ملاحقة الإرهاب" في كل مكان من العالم، تمنح المبرر أو المسوغ لصانع القرار السياسي لزع القوات الأمريكية المسلحة في مهمات قتالية في أماكن متعددة من العالم، بعيدة من الناحية الجغرافية عن حدود الولايات المتحدة بعداً شاسعاً، بدعوى التصدي لمخاطر الإرهاب في حرب دفاعية تستهدف استباق المخاطر التي قد تتعرض لها الولايات المتحدة كتلك التي حدثت في الحادي عشر من سبتمبر في أكبر مدنها وأهم ولاياتها.

¹⁷ لا بد من التذكير هنا أنه ومنذ سقوط العاصمة الأفغانية، كابول، في تشرين الثاني/نوفمبر 2001 بات من الواضح أن إدارة بوش الابن تستغل "الحرب على الإرهاب" لتبرير استراتيجية جيوسياسية أكثر عدوانية، وهي نشر القوة العسكرية للقضاء على بعض التهديدات وتخويف الباقين كلهم.
¹⁸ لمزيد من التفاصيل يمكن الاطلاع على النص الكامل للخطاب قارن:

Bush, George W. (January 29, 2002). "President Delivers State of the Union Address". Office of the Press Secretary. Washington, D.C.: Office of the Press Secretary. Archived from the original on February 1, 2002.

والنص الكامل متاح على الرابط التالي:

<https://web.archive.org/web/20090502151928/http://georgewbush-whitehouse.archives.gov/news/releases/2002/01/20020129-11.html>

¹⁹ من الناحية المظرية، حيث يعكس مصطلح "الدول المارقة Rouge States"، نوعاً من الإدراك القيمي للسياسة الخارجية لإحدى الوحدات في نظرها إلى الآخر الذي يرفض الامتثال للقواعد والترتيبات التي تفرضها القوى الكبرى في النظام الدولي، فهي وحدات منبوذة تعامل باعتبارها "خارج" الجماعة الدولية، فالدول المارقة هي وصف متعدد يفترض المروق أو الخروج عن إطار أو نظام ما، فهي تفترض وجود الآخر: النظام، والقيم، والجماعة، وهم خوارج عن قواعد ثابتة، أو ترتيبات تخضع لها باقي الوحدات وتمتثل. وما دامت الدول المارقة ليست تعبيراً عن رؤية موضوعية قدر تعبيرها عن إدراك صانعي القرار الأمريكي، فلا توجد مؤشرات أو معايير متفق عليها لوصف تلك الدول بالمروق أو الخروج. ويعنى ذلك أن الدول "المارقة" مجرد رؤية إدراكية لصانعي السياسة الخارجية الأمريكية عن مصادر التهديد الأساسية أو المختلفة في النظام الدولي في مرحلة ما بعد الحرب الباردة وحرب الخليج الثانية، خاصة مع تطوير الإدارة الأمريكية لاستراتيجية المقدره على الدخول في حربين إقليميتين في آن واحد، ومن ثم فإن الاستراتيجية العالمية التي كانت تستهدف مجابهة التهديد السوفيتي تحولت إلى استراتيجية إقليمية تركز على الخطر الناجم عن الدول المارقة. لمزيد من التفاصيل قارن: محي الدين محمد قاسم، الدولة المارقة: الرؤية الأمريكية للعالم بعد أحداث سبتمبر 2001، (القاهرة : مركز الحضارة للدراسات السياسية ، أمّتي في العالم، 2004، المجلد الخامس، الجزء الأول، ص ص 497-533).

هكذا أعدت الارضية الايديولوجية وأعد مسرح العمليات بعناية، وثمة فقرة أولى فيه كان عنوانها المعروف: إزاحة "طالبان" من السلطة، وقد تم في حينه إنجازها بنجاح! علما ان "طالبان" عادوا الى السلطة بعد عشرين عاما من الاجتياح الأمريكي لافغانستان الذي توج بانسحاب خائب (وهذا يحتاج الى وقفة خاصة هي خارج هذا المقال). ولكن لا بد من الإشارة الى أن هذه الفقرة لم تكن إلا مجرد فقرة من نص أمريكي طويل امتد ليشمل الحصول على قواعد وامتيازات في أفغانستان. ودخلت الحرب الاقتصادية على الخط فقدمت "مساهمتها" في تطويع الإقليم لإدارة أمريكا في "الشراكة" في نفط وغاز بحر قزوين الواعد حقا، والذي يستحق مثل هذه المغامرة العسكرية!

بعيدا عن منهجية نظرية المؤامرة، يمكن القول أنه مثلما كان سيناريو "حرب النفط" جاهزا، في مطلع العقد الأخير من القرن العشرين، ولا ينتظر غير ذريعة للتنفيذ (وكان دخول قوات النظام العراقي السابق الى الكويت تلك الذريعة)، كذلك كان ذات السيناريو جاهزا في 2001 ولا ينتظر غير الذريعة²⁰. كانت الذريعة هذه المرة تجبيرات نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001. هكذا إذن سيقف الدعوى الى "مقاومة الارهاب" عنوانا لحملة عسكرية جرارة و طويلة الأمد اهدافها مشدودة الى اغراض أخرى اهمها النفط، وان لم يكن الوحيد طبعا. وهكذا اختيرت ساحة افغانستان لتكون مسرحا لتلك الحملة، لا لأنها فقط معقل "طالبان"، و "القاعدة"، وإنما لأنها الممر الجغرافي الأميز الى منطقة النفط المستهدفة – بحر قزوين الواعد -.

و هنا لا بد من التساؤل عن الأسباب والعوامل الكامنة وراء ذلك؟

هناك الكثير من الأسباب والعوامل التي رشحت أفغانستان لتكون بوابة أمريكية للعبور الى بحر قزوين. فالدول المشاطئة للبحر المذكور والمطلبة عليه (روسيا الاتحادية، بعض جمهوريات آسيا الوسطى، إيران) تكاد تكون ممتنعة على العبور الأمريكي. وارتباطا بذلك فإن أفغانستان كانت هي الأرجح و "الخاصرة الرخوة" بسبب أوضاعها المعروفة حينذاك حيث وجود سلطة منبوذة عالميا وإقليميا هي "طالبان"، تأوي في الوقت نفسه قوة عسكرية معادية لأمريكا والغرب - "تنظيم القاعدة"، وتنتظر إليها في الجوار الإسلامي (الإيراني، الأوزبكي، والطاجيكي) كقوة معادية لحلفائها الأفغان آنذاك "تحالف الشمال" بسبب تحالفها مع نظام طالبان.

والأهم من ذلك ان "الحملة الأمريكية على الارهاب" انتقلت لاحقا الى طور من اطوارها افصحت فيه عن واحد من أهم وأضخم الأهداف التي من اجلها انطلقت، أي استكمال السيطرة على منابع الطاقة النفطية، هذه التي سنتل تمثّل – ولعقود عدة قادمة – العصب الحيوي للإقتصاد الرأسمالي العالمي. ومن هنا لا بد من التأكيد على انه ليس هناك من سبيل أمام الولايات المتحدة كي تضمن استمرار تحكمها في الاقتصاد العالمي خلال هذا القرن، أو قسم مهم منه على الأقل، إلا بوضع اليد على هذه الثروة، ففي ذلك مفتاح أساسي من مفاتيح هيمنتها الراهنة والمقبلة. ومن المفيد الإشارة هنا الى انه لم يكن من مصلحة الإدارة الأمريكية الإعلان عن هذه الهدف حين بدأت حملتها في أفغانستان، لأن ذلك سيفسد عليها مبررات حملتها. ولعله لن يكون في مصلحتها الإقدام على مثل ذلك الإعلان في أية مرحلة من مراحل هذه الحملة. ومع ذلك، كشفت الحلقات التالية من حروب أمريكا على "الإرهاب" عن هذا الهدف الذي كان يراد له ان يظل مضمرا آنذاك كما أريد لنظيره في حرب الخليج الثانية في 1991 أن يظل متواريا عن الأنظار والتقدير، بدون جدوى!.

على ضوء ما سبق ذكره يمكن طرح التساؤل الرئيسي التالي: ما هي معالم أو ملامح التحولات والتغيرات في التفكير الاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية بعد 11 سبتمبر 2001، وهل كانت امتدادا للتفكير الاستراتيجي الأمريكي خلال الحقبات التاريخية السابقة أم مثلت تحولا في نمط ومنطق

²⁰ لمزيد من التفاصيل قارن: سمير صارم، إنه النفط يا (...) الأبعاد النفطية في الحرب الأمريكية على العراق (دمشق: دار الفكر، 2003).

هذا التفكير القائم على سرديات معروفة في مقدمتها عالمية الدور الأمريكي؟ ومن أبرز منظري هذا الاتجاه تشارلز كروثامر (Charles Krauthammer) الذي أعلن الانفراد الأمريكي بعالمية الدور مؤكداً أن المنافسين للولايات المتحدة الأمريكية في عالم يتسم بتعدد الأقطاب Multipolar World ليس أكثر من أسطورة، سرعان ما تفجرت²¹.

وبالعودة الى التاريخ "السحيق" فإن تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية، بعد انفصالها عن بريطانيا، شكل بداية تاريخ آخر لسلسلة التطور للحضارة الغربية، في كونها حضارة كونية، وهي نفس العقيدة التي تأسست على أساسها الولايات المتحدة الأمريكية، المكلفة بتنفيذ "رسالة سماوية أو المهمة الالهية المقدسة"²²، ينبغي نشرها بكل الوسائل المتاحة.

فمن المعروف أن القادة الأمريكيين، من الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء، من الذين تعاقبوا على الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية صرحوا بطريقة مباشرة عن "المهمة الحضارية" التي تنتظر هذه الأمة! وهو ما دفع أحد الباحثين الى القول: "إن هناك خيطاً من الترابط بين جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية والرئيس الأمريكي الحالي (المقصود هنا جورج دبليو بوش - ص.ي)"²³. فمثلاً كتب جورج واشنطن (1789-1797) "ان الله أراد لأمريكا أن تكون الموطن الذي يبلغ فيه الإنسان كمال إنسانيته، وأن تصبح أرضاً تيسر العلوم والفضيلة والحرية والسعادة والمجد... إن قضيتنا قضية البشرية قاطبة"²⁴. في حين صرح (جورج دبليو بوش) بعد أكثر من قرن من هذا الكلام وهو يحدد "الوظيفة التقدمية للحرب" قائلاً: "إن الحرب الأمريكية هي حرب صليبية وحرب عادلة، تهدف إلى نشر القيم الإنسانية الأمريكية في العالم"²⁵. أما الرئيس "المعتدل" (باراك أوباما) فقد صرح بما معناه ان القيادة الأمريكية للعالم، هي أمر محتوم على الإنسانية، بحكم التفوق الأمريكي على كل الأصعدة!!.

إن الاقتباسات اعلاه تتيح الاستنتاج بأن هناك اساساً أيديولوجياً واحداً هو بمثابة الاسمنت المسلح الذي قامت عليه الدولة الأمريكية، و في ضوئه تشكلت الرؤية الأمريكية إزاء كل ماله صلة بالنظرة الى ذاتها أو فيما يتعلق بنظرتها الى الآخرين. ويعني هذا أن الولايات المتحدة الأمريكية ولدت بالأصل دولة إستعمارية أو مشروعاً إستعماريّاً على أقل تقدير، كما يرى بعض الباحثين²⁶.

ولابد من الإشارة أيضاً الى أن الكثير من المفكرين الأمريكيين، قد ساهموا في تجذير "قدسية" هذه التوجهات الفكرية والممارسات العملية. ومن جهة أخرى يجب عدم نسيان أو التقليل من الدور الذي تنهض به مؤسسات التفكير الأمريكية Think Tanks التي يبلغ عددها بحسب بعض الباحثين ما يقارب الـ 1200 مؤسسة للفكر والرأي تسيطر على الساحة السياسية الأمريكية وتشكل مجموعة متباينة من حيث اتساع نطاق المواضيع²⁷.

وبغض النظر عن تبدل الرؤساء وتداول السلطة بين الحزبين الرئيسيين: الجمهوري والديمقراطي، فإن الاستراتيجية الأمريكية بُنيت على أسس ومنظومة ثابتة يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- **المحورية أو المركزية الأمريكية American Centrism**: وتعني هذه القاعدة أن مصلحة أمريكا أولاً و أخيراً فوق كل اعتبار سواء في انسجام أو في تناقض مع مصالح حلفائها وإن اقتضى الأمر التضحية بالحليف أو الخروج عن الإجماع الدولي.

²¹ Charles Krauthammer, The Unipolar Moment, *Foreign Affairs*, Vol. 70, No. 1, 1991, p.24.

²² ورد الاقتباس عند: مصطفى الفيلاي، نحن والآخر، "المستقبل العربي"، السنة 28، العدد 318، أغسطس 2005، ص15.

²³ انظر: د. عصام عبد الحسين نومان، الفكر التوسعي الأمريكي - دراسة فلسفية في تأصيل المفهوم، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد (3)، العدد (2/2013)، ص 41.

²⁴ ورد الاقتباس عند نبيلة بن يحيى. انظر: نبيلة بن يحيى، الفوضى في السياسة الدولية: رهان القوة ومطلب الأمن، ...، مصدر سبق ذكره، ص 121.

²⁵ نفس المصدر السابق، ص 122

²⁶ قارن: د. عصام عبد الحسين نومان، الفكر التوسعي الأمريكي...، مصدر سابق، ص 41.

²⁷ نفس المصدر السابق، ص 124.

- **الهيمنة المطلقة Absolute Hygemony**: وتعني فرض السيطرة الأمريكية على كل نقطة استراتيجية في العالم و في أي وقت تريده و تحت أي ظرف تعتبره مناسباً. و هو ما يفسر إصرار الولايات المتحدة الأمريكية على إنشاء قواعد عسكرية ثابتة أو متنقلة و نشر أساطيلها في أهم البحار والمحيطات و استغلالها لكل الفرص المتاحة من أجل زرع فرق و كتائب عسكرية للتدخل السريع. و في التاريخ أمثلة كثيرة.

- **ضمان إستمرارية الهيمنة**: ويتم ذلك باستخدام كل الوسائل العسكرية و الاقتصادية و الدبلوماسية والقانونية و الأمنية و المخبرية وصولاً حتى الابتزاز السياسي، خصوصاً أن كل الظروف الموضوعية باتت متوفرة في ظل غياب منافس ممثلاً في دولة أو في حلف قادر على منازعة "الإمبراطورية الجديدة" سيطرتها على العالم. إذ أن كل دولة عظمى تنظر إلى العالم كمجال حيوي لإستراتيجياتها وبالتالي صار لزاماً عليها وضع اليد على كل منطقة مركزية و محورية.

- **الحق مع القوة Might is Right**: وهو ما يفسر الهاجس المستمر بأن هناك عدو ما و خطر محدد يستهدف و يترتبص بهذه الأمة المثال أو المتميزة. و إذا لم يتوفر هذا العدو و جب اختلاقه! يقول (جون كريستوف روفين Jean Christophe Rufin) في كتابه "الإمبراطورية والبرابرة الجدد"²⁸ إن الخطر أصبح متعدداً و غير متوقع و متغير، فقط وجهته تسمح لنا بتحديدده، فكان التركيز على "الخطر الأحمر الشيوعي" ثم انتقل إلى "الخطر الأخضر الإسلامي" وبعدها إلى ما يصطلح عليه ببؤر التوتر المتمثلة في دول تعتبرها الولايات المتحدة دولاً مارقة - Rogue States - أو كما يسميها (روفين): دولاً تعيش توتراً - States of concern - إلى الإرهاب هذا المصطلح الذي يصير منظوراً للإمبراطورية على أن يظل هلامياً ضبابياً و بمعايير تتغير بتغير المصالح الأمريكية و في أحيان كثيرة بمعيار الكيل بمكيالين.

متغيرات الاستراتيجية الأمريكية

يتم تغيير أو تعديل الاستراتيجية العليا لدولة عظمى مثل الولايات المتحدة عند تحقيق الأهداف المرجوة، و عند فشل تحقيق الأهداف، أو عند حدوث متغيرات كبيرة في العالم والمحيط. فمثلاً دفع انفجار الخلاف الصيني - السوفياتي الرئيس الأمريكي حينذاك (ريتشارد نيكسون) إلى زيارة الصين و تغيير سياسات بلاده و استهدافاتها في شرقي و جنوب شرقي آسيا. كما دفع **الحظر النفطي** الذي اعلنته بعض البلدان العربية في تشرين الأول/أكتوبر 1973 الولايات المتحدة إلى جعل منطقة الشرق الأوسط إحدى أولويات السيطرة الاستراتيجية. و في حزيران 1979 قال المفكر الاستراتيجي الأمريكي المعروف زبيغنيف بريجنسكي (Zbigniew Brzezinski)²⁹ إن الشرق الأوسط - بالنسبة للولايات المتحدة - قد أصبح مساوياً في الأهمية الاستراتيجية لغرب أوروبا و الشرق الأقصى، وهذا ما عزز موقع إسرائيل في الاستراتيجية الأميركية، لكونها قاعدة عسكرية أميركية أو "أكبر حاملات طائرات أميركية في العالم" و دركي الولايات المتحدة في المنطقة.

ومن ناحية ثانية دفعت أزمة فيتنام و هزيمة الولايات المتحدة المذلة فيها في اواسط السبعينات من القرن العشرين، إلى الانكماش الأمريكي ولو إلى حين، و الابتعاد عن خوض المعارك البرية، و التركيز

²⁸ Jean-Christophe Rufin publie *L'Empire et les nouveaux barbares*, Paris, 1990.

²⁹ زبيغنيف (هكذا يلفظ باللغة البولندية) بريجنسكي (1928 - 2017) مفكر استراتيجي أمريكي معروف و بروفيسور في العلوم السياسية، و خلال الفترة 1977 - 1981 عمل مستشاراً للأمن القومي لدى الرئيس الأميركي الأسبق (جيمي كارتر). و من أبرز أعماله:

The Grand Chessboard: American Primacy and Its Geostrategic Imperatives. Basic Books. 1997.

The Choice: Global Domination or Global Leadership. Basic Books. 2004.

Strategic Vision: America and the Crisis of Global Power. Basic Books. 2012.

على الأسلحة الذكية المعقدة المرتبطة بالأقمار الصناعية للقصف والتدمير عن بُعد دون ضحايا وقتلى في صفوف الجنود الأميركيين. وكان لهذه الهزيمة في فيتنام والتي تزامنت وتداخلت مع أزمة النظام الرأسمالي الثالثة في القرن العشرين، أن أوصلت "المحافظين الجدد" إلى السلطة في بريطانيا والولايات المتحدة، حاملين معهم أيديولوجية الليبرالية الجديدة واستهدافاتها الاقتصادية والاجتماعية والتجارية، لاجتياح دول العالم اقتصادياً وعسكرياً، حيث تدعو الحاجة³⁰. وأدت هذه المتغيرات إلى ما سمي بـ "حرب النجوم"، والتي سَعَرَت سباق التسلح بين القطبين العالميين في حينه (الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي).

في حين غيّرت الثورة الإيرانية، التي وقعت في عام 1979، موازين القوى في الشرق الأوسط وأطلقت ديناميات جديدة لغير صالح الغرب والولايات المتحدة وحلفائها، ودفعت بعد ذلك إلى حروب الخليج كافة، وتبني الولايات المتحدة سياسة "الفوضى الخلاقة"، وسياسة "إعادة هيكلة الشرق الأوسط".

وبالمقابل أدى تفكك الاتحاد السوفياتي³¹ إلى تغيير كبير في استراتيجية أميركا وأوروبا الغربية، فوضعت استراتيجيات جديدة لحلف الأطلسي. تم تحويل الحلف (حسب زعم مؤسسيه) من "حلف للدفاع عن أوروبا الغربية في وجه أي اجتياح سوفياتي محتمل"، إلى حلف امبريالي هجومي نحو أوروبا الشرقية لاحتوائها، ولـ "الدفاع" عن مصالح الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا في العالم، وخاصة في أفريقيا والشرق الأوسط ووسط آسيا³².

أما حربا الولايات المتحدة على أفغانستان والعراق فأدتا إلى سقوط الاستراتيجية الأمريكية الهادفة إلى احتلال سبع دول عربية وإسلامية خلال خمس سنوات. وأدت أزمة النظام الرأسمالي العالمي، الدورية والبنوية، والتي ضربت "مراكز" هذا النظام المتقدمة وامتد لهيبها إلى دول "الاطراف"، إلى تقليص حاد في الموازنات العسكرية لهذه الدول بدأت تظهر آثارها تدريجياً مع معالجات المديونيات العامة ومع سياسات التقشف وانخفاض الإيرادات العامة. وما "المراجعة الاستراتيجية" التي تكلم عنها الرئيس الأمريكي السابق (باراك أوباما) إلا نتيجة لهذه الأزمات، وبداية متغيرات كبيرة على الصعيد الاستراتيجي، في مرحلة الترددي الأمريكي الشامل.

³⁰ تقتضي الضرورة هنا بعض التوضيح حول "المحافظين الجدد". بداية لا بد من الإشارة إلى ان المحافظة Conservatism اليوم هي مدرسة فكرية ذات أطراف في السياسة الأمريكية بعضها معتدل، وآخر متطرف، والمحافظون الجدد Neo-conservative يقفون في أقصى يمين هذه الحركة. ومصطلح "المحافظون الجدد" يشير إلى حركة سياسية وأيديولوجية وأهداف سياسية عامة لتيار فكري وسياسي فاعل في الولايات المتحدة الأمريكية. فهؤلاء يقفون على أقصى اليمين وهم امتداد للتيار الويلسوني (نسبة إلى الرئيس الأمريكي الأسبق توماس وودرو ويلسون، الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة) المحافظ في السياسة الأمريكية الذي كان يؤمن بأن القيم الديمقراطية تحتاج إلى قوة قادرة على فرضها ونشرها، والضرب بقوة على يد من يقف ضدها في أي مكان في العالم. والفارق الأساسي بين المحافظين الجدد والمحافظين الجمهوريين التقليديين، يكمن في أن "المحافظين التقليديين" يميلون إلى تبني خطاب العزلة والتقليل من التدخل في الشؤون العالمية، بينما ينزع "المحافظون الجدد" إلى الانهماك في قضايا السياسة العالمية ويدعون إلى زيادة التدخل الأمريكي في الشؤون الدولية. لمزيد من التفاصيل قارن: بوعلامي العباسي، دور المحافظين الجدد في صناعة القرار الأمريكي، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في العلاقات الدولية، كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية/قسم الدراسات الدولية، جامعة الجزائر 3، السنة الجامعية 2012-2013؛ كذلك: إرون سلزر (محرر)، المحافظون الجدد. ترجمة: فاضل جتكر. ط 2 (الرياض: مكتبة العبيكان، 2005)؛ كذلك: هالبر، ستيفان، وكلارك، جونانان. التفرد الأمريكي: المحافظون الجدد والنظام العالمي، ترجمة: عمر الأيوبي (بيروت: دار الكتاب العربي: 2005).

³¹ لقد كُتِب الكثير عن تفكك وانهار الاتحاد السوفياتي وما تركه من آثار وتداعيات. لمزيد من التفاصيل قارن على سبيل المثال لا الحصر: رسلان حسبولانوف، المواجهة الدامية- شهادة للتاريخ عن انهيار الاتحاد السوفياتي، ترجمة: أبو بكر يوسف (القاهرة: مركز الأهرام، 1996)؛ كذلك: أحمد عباس عبد البديع، الإتحاد السوفياتي من القمة إلى التفتك، مجلة السياسة الدولية، ع 41، ج 8، جويلية 1995؛ كذلك:

Sakwa, Richard, *The Rise and Fall of the Soviet Union 1917-1991* (London and New York: Routledge, 1999) ; Malia, Martin E. *The Soviet tragedy: a history of socialism in Russia, 1917-1991* (New York: Free Press; Toronto: Maxwell Macmillan Canada; New York: Maxwell Macmillan International, 1994)

³² لمزيد من التفاصيل حول حلف الناتو من حيث نشوئه وتطوره قارن على سبيل المثال:

Kaplan, Lawrence S. (2004). *NATO Divided, NATO United: The Evolution of an Alliance*. Greenwood Publishing Group.

Wenger, Andreas; Nuenlist, Christian; Locher, Anna (2007). *Transforming NATO in the Cold War: Challenges beyond deterrence in the 1960s*. Taylor & Francis.

وإذا نظرنا إلى محصلة خمسة عقود ونيف من الزمن، نجد أن مسيرة الانحدار الأميركي بدأت منذ أواسط ستينيات القرن الماضي، رغم "الانتصارات" الجزئية ومظاهر الرخاء الاقتصادي، وتوسّع هيمنة قطاع المال والمضاربات على الاقتصاد. فقد انهار "مبدأ مونرو"³³ في القارة الأميركية، وسقطت مقولة "الحديقة الخلفية" لأميركا، وخرجت معظم دول أميركا اللاتينية من التبعية، وصمدت كوبا رغم الحصار الأميركي والمؤامرات المستمرة عليها، ورغم سقوط الاتحاد السوفياتي ومطلته التي حمت كوبا لعقود. ومثلت آسيا الوسطى استهدافاً أميركياً - أوروبياً أساسياً منذ سقوط الاتحاد السوفياتي، وتشكل هذه المنطقة ساحة منافسة حادة بين روسيا والصين وأميركا وإيران وتركيا والهند. وفي هذا الإطار كتب المفكر الأمريكي (مايكل كلار Michael Klare) في مقال عنوانه بـ: "الجغرافية الجديدة للصراع"، في إشارة صغيرة للعسكرية الأمريكية أكدت على ضرورة بسط النفوذ على آسيا الوسطى و هذا الخيار بذاته يمثل تحولا إستراتيجيا هاما³⁴.

من المعروف ان منطقة آسيا الوسطى لم تشكل- تقليديا - مجالا حيويا للمصالح الكونية للولايات المتحدة الأمريكية. لكن بانهايار الاتحاد السوفيتي في العقد الأخير من القرن العشرين، و ظهور 15 دولة مستقلة جديدة على الخريطة الجيوسياسية العالمية، واكتشاف احتياطيات هائلة من النفط والغاز، وانفجار سلسلة هائلة من الاحداث في المنطقة، اندلع النقاش حول المفاصل الجيوسياسية والجيواستراتيجية العالمية التي تتيح للولايات المتحدة التحكم في ديناميات التفاعلات الدولية وتوجيهها نحو إطالة وتكريس عصر الإمبراطورية الأمريكية في عهد "السلام الأمريكي *Pax Americana*". في خضم تلك النقاشات برزت منطقة آسيا الوسطى كـ "منطقة رخوة" إستراتيجيا، حيث بدت باهتة على سلم المصالح الأمريكية. ثم ما لبثت أن وصفت بالمحور الجيواستراتيجي والقلب الجيوبوليتيكي في خريطة المصالح الأمريكية الكونية.

وقد خضع الدور الأمريكي في آسيا الوسطى منذ عهد الاستقلال إلى غاية وقوع أحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001 - لقراءة عقد من الزمن - إلى المقاربة النيوليبرالية التي تحكمت في صياغة سلوك واتجاه الدبلوماسية الأمريكية لفترة ما بعد الحرب الباردة، والتي اعتمدت على براديجم التوسع **Enlargement** الذي طوره (أنطوني ليك) في مقابل الاحتواء "**Containment**" وتستند إلى الأسس النظرية للنيوليبرالية³⁵.

ولا بد من الإشارة هنا الى ان منطقة آسيا الوسطى تعتبر لوحة المفاتيح في إستراتيجية الهيمنة الأمريكية على أوراسيا، حيث تبدأ السيطرة الأمريكية على ديناميكية التفاعلات الإقليمية والسياسية الحبلية بالأحداث في قارة آسيا انطلاقا من إرساء ترتيبات عسكرية واقتصادية وأمنية في آسيا الوسطى. أما الإستراتيجي زيغنيف بريجينسكي (Zbigniew Brzezinski) فمثلت لدى المنطقة المحور الجيوبوليتيكي للقارة الآسيوية أي أنها منطقة النفاذ للمناطق الآسيوية المهمة وحاجب الموارد عن اللاعبين الإستراتيجيين³⁶. بمعنى أنها مفتاح التدخل والتحكم وإدارة الصراع سواء على المستوى الآسيوي أو العالمي، ونقطة ارتكاز أساسية في تنفيذ مشروع القيادة العالمية حسب بريجينسكي Brzezinski والتي هي

³³ "مبدأ مونرو" هو بيان أعلنه الرئيس الأمريكي الخامس (جيمس مونرو) في رسالة سلمها للكونجرس الأمريكي في 2 ديسمبر 1823م وقال فيه أن المحاولات الاضافية من الدول الأوروبية لاستعمار أراضي أو التدخل في شئون دول الأمريكتين ستعتبره الولايات المتحدة عملاً عدائياً يتطلب تدخل أمريكي. نادى "مبدأ مونرو" بضمان استقلال كل دول نصف الكرة الغربي ضد التدخل الأوروبي بغرض اضطهادهم، أو التدخل في تقرير مصيرهم. ويشير مبدأ مونرو أيضاً إلى أن الأوروبيين الأمريكيتين لايجوز اعتبارهم رعايا مستعمرات لأي قوى أوروبية في المستقبل. والقصد من هذا البيان هو أن الولايات المتحدة لن تسمح بتكوين مستعمرات جديدة في الأمريكتين، بالإضافة إلى عدم السماح للمستعمرات التي كانت قائمة بالتوسع في حدودها. ومن الجدير بالذكر ان (مونرو) مارس سياسة انعزالية عندما رفع شعار "أمريكا للأمريكيين" الذي بقي أساس السياسة الخارجية للولايات المتحدة الى اية الحرب العالمية الاولى. ولعل التاريخ يعيد نفسه بعدما اصبح (دونالد ترامب) رئيسا للولايات المتحدة الامريكية في 2017/01/20. لمزيد من التفاصيل قارن: https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%A8%D8%AF%D8%A3_%D9%85%D9%88%D9%86%D8%B1%D9%88

³⁴ Michael Klare, *New Geography of Conflicts, Foreign Affairs*, 2001,80 (3): 49-61.

³⁵ لمزيد من التفاصيل قارن: لزه وناسي، الإستراتيجية الأمريكية في آسيا الوسطى وانعكاساتها الإقليمية بعد أحداث 11 سبتمبر 2001...، مصدر سابق، ص 113 ولاحقا.

³⁶ زيغنيف بريجينسكي، رقعة الشطرنج العظمى: التفوق الأمريكي وضروراته الجيواستراتيجية الملحة، ترجمة: سليم أبراهام (دمشق: منشورات دار علاء الدين، الطبعة الأولى، 2001)، ص 58 - 59.

-بشكل عام - مصدر القلق الأمريكي الرئيس في القرن الحادي والعشرين، وهي القارة التي من الممكن أن ينشأ فيها تحالف إستراتيجي بين مجموعة من القوى العظمى الآسيوية، يكون له تأثيرات شديدة على المشروع الأمريكي العالمي.

إن هذه المنطقة التي تمتد من جبال الأورال حتى حدود الصين الغربية أصبحت بعد أحداث 11 سبتمبر/أيلول 2001 على غاية من الأهمية الاستراتيجية والتجارية والاقتصادية نظرا لموقعها الجيوستراتيجي المهم و لثروات متعددة: بترول بحر قزوين، غاز تركمانستان، قطن أوزباكستان و ذهب قيرغيزستان. و بما أن "القيادة المركزية الأمريكية" Centcom³⁷ تضع يدها على منطقة الخليج وثرواتها بات من الضروري بسط النفوذ على منطقة يقدر مخزونها بثلاث مرات ما يخزنه الخليج. وشكل الانسحاب الأمريكي من العراق فشلاً استراتيجياً كبيراً. وكان الاسرائيليون أكثر صراخاً، إذ اعتبرت صحيفة "هآرتس" ان قرار الانسحاب من العراق "... يعكس فشلاً في أداء المهمة التي شنت الحرب لأجلها". ونفس الموقف كرره الاسرائيليون بعد الانسحاب الأمريكي الاخير من افغانستان !!.

محتوى وتجليات التحولات التي شهدتها التفكير الاستراتيجي للولايات المتحدة بعد 11

أيلول/سبتمبر 2001³⁸

يمكن القول ان إدارة جورج دبليو بوش، جاءت إلى السلطة في بداية عام 2001، بأفكار "جديدة" في مجال الدفاع والأمن القومي، وركزت على إدخال تعديلات هامة على استراتيجية الأمن القومي الأمريكي، حتى قبل وقوع هجمات 11 ايلول/سبتمبر 2001 والتي كانت تحمل في ثناياها الخطوط الرئيسية لما اطلق عليه لاحقا "عقيدة الحرب الوقائية" كمفهوم استراتيجي جديد في القرن الحادي والعشرين³⁹.

ويرى بعض الباحثين أن مفهوم الأمن القومي الذي عبرت عنه إستراتيجية بوش عقب أحداث 11 ايلول/سبتمبر 2001، وقع تحت تأثير البيئة النفسية التي فرضتها تلك الأحداث، وكانت مساحة الاختلاف بين البيئة الواقعية والبيئة النفسية هي المسؤولة بالأساس عن المشكلات التي واجهها مفهوم إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن للأمن القومي⁴⁰.

وبمزيد من التفصيل يمكن القول ان التعديلات تركزت على ثلاثة مجالات رئيسية هي:

- بناء القوات المسلحة؛

- ودور القوة العسكرية في تحقيق أهداف الأمن القومي؛

³⁷ القيادة المركزية الأمريكية (بالإنجليزية: United States Central Command) والمعروفة اختصاراً بـ "سنتكوم" (CENTCOM)، هي الإدارة المسؤولة عن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا - باستثناء إسرائيل - لتنظيم القوات الأمريكية وحلفائها من داخل حلف شمال الأطلسي ومن خارجه. لمزيد من التفاصيل قارن:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%8A%D8%A7%D8%AF%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D9%83%D8%B2%D9%8A%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%85%D8%B1%D9%8A%D9%83%D9%8A%D8%A9

³⁸ سبق وان تناولت هذه التحولات التي شهدتها التفكير الاستراتيجي في الولايات المتحدة بعد 11 ايلول/سبتمبر 2001 في عدة دراسات. لمزيد من التفاصيل انظر على سبيل المثال: صالح ياسر، بعض معالم الإستراتيجية الجديدة للولايات المتحدة بعد 11 سبتمبر 2001. موقع الحوار المتعدن، تاريخ النشر 2002/9/12؛ كذلك: د. صالح ياسر، ملاحظات مكثفة حول نظرية " الفوضى البناءة"، "طريق الشعب"، العدد 5 السنة 71، 11 آب 2005؛ كذلك: د. صالح ياسر، بعض معالم التحولات في التفكير الاستراتيجي للولايات المتحدة بعد 11 سبتمبر 2001، دراسة في أربع حلقات نشرت في "طريق الشعب" (بدأ من العدد 26 بتاريخ 2007/9/12 ثم في 9/13 و 9/16 و 2007/9/17).

³⁹ لمزيد من التفاصيل قارن: أنتولي أوتكين، الاستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي العشرين، مصدر سبق ذكره.
⁴⁰ قارن على سبيل المثال: معتز محمد السيد سلامة، تأثير أحداث 11 سبتمبر في المفهوم الأمريكي للأمن القومي، رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 2008.

- وتحديد مصادر التهديد.

وقد اندرجت معظم هذه التعديلات ضمن عملية المراجعة الدورية التي تتم كل أربع سنوات Quadrennial Review للسياسة الدفاعية الأمريكية، والتي كان النقاش السياسي والعسكري والعلمي قد اشتد بشأنها منذ أواخر التسعينات من القرن الماضي، العشرين، بعد انتفاء الحاجة لكثير من المرتكزات التي قامت عليها الأيديولوجيا الدفاعية الأمريكية.

وقد استمدت هذه التعديلات قوتها من عدة اعتبارات هامة، يأتي في مقدمتها أن إدارة جورج دبليو بوش الجمهورية أعطت أولوية قصوى لقضايا الدفاع والأمن القومي، بدرجة أكبر من إدارة بيل كلينتون الديمقراطية السابقة. وعلى هذا الأساس، شهدت السياسة الدفاعية تحولات هامة، كمرتكز أساسي من مرتكزات استراتيجية الأمن القومي الأمريكي ووفق رؤية الإدارة الجمهورية وعلى رأسها بوش تمثلت في الآتي⁴¹:

1- التركيز على زيادة القدرات العملائية للقوات المسلحة من خلال بناء جيش أخف وإدخال أفكار ومفاهيم قتالية جديدة، حيث تبني الرئيس (جورج دبليو بوش) موقفا يقوم على أن المؤسسة العسكرية الأمريكية مازالت منظمة بدرجة كبيرة لمواجهة تهديدات "الحرب الباردة"، أكثر من مواجهة تحديات قرن جديد، ولخوض عمليات عسكرية تعكس العصر الصناعي، أكثر من خوض معارك "عصر المعلومات". ولذلك، ركزت السياسة الدفاعية في بداية عهد بوش الابن على التعامل مع عالم سريع التغير، بما في ذلك تقليل الاستعداد لخوض حروب تقليدية، في مقابل التركيز على التعامل مع أوضاع أكثر تعقيدا، مثل الصراعات منخفضة الحدّة كالدفاع عن "تايوان" في مواجهة حصار صيني مثلا، أو إبقاء "مضيق هرمز" مفتوحا أمام الملاحة الدولية. ورغم ذلك فقد خاضت الولايات المتحدة حربين خلال سنتين، الأولى في أفغانستان والثانية في العراق وهي حروب تقليدية بكل معنى الكلمة، رغم ما أثير من تساؤلات عن استعمال أسلحة غير تقليدية بمفاعيلها في كلا الحربين.

2- التركيز على بناء نظام متكامل للدفاع الصاروخي يكون مؤلفا من صواريخ اعتراضية منطلق من البر ومن سفن بحرية أو قواعد بحرية، بالإضافة إلى أسلحة ليزر منطلق من طائرات. حيث أخذ هذا البرنامج الأهمية المركزية في السياسة الدفاعية لإدارة جورج دبليو بوش، بهدف مواجهة التهديدات والأخطار الناجمة عن اتساع نطاق الانتشار الصاروخي لدى الدول التي تعتبرها الولايات المتحدة دولا "مارقة"، مثل كوريا الشمالية وإيران والعراق، وذلك في ظل قناعة بأن هذا التهديد يعتبر الأكثر خطورة على الأمن القومي الأمريكي في المستقبل القريب.

3- اعطاء أهمية متميزة لمسرح العمليات في آسيا. وهذا يعني حدوث تغير جذري في السياسة الدفاعية الأمريكية التي ظلت تركز منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على مسرح العمليات الأوروبي بهدف منع اجتياح سوفياتي لدول غرب أوروبا أثناء الحرب الباردة.

فبعد إلقاء نظرة على خارطة السياسة والاقتصادية لآسيا ستوضح أهمية وتعقيدات المنطقة، فهي تضم بلدا صناعيا متطورا مثل اليابان باقتصاد أكبر من اقتصاد أي بلد في أوروبا، وثلاثة بلدان قارية هي الهند والصين وروسيا الاتحادية، وبلدين - كوريا الجنوبية وسنغافورة - قريبين من امتلاك الإمكانيات الاقتصادية والتكنولوجية للدول الصناعية المتقدمة، وبلدين كبيرين هما الفلبين واندونيسيا، اللذين يتكونان من آلاف الجزر وتتحكمان بأهم الطرق البحرية، وتايلاند وبورما وهما بلدان قديمان تعداد سكانهما أكثر من (121) مليون نسمة وهو ما يقارب أو يفوق تعداد سكان فرنسا و إيطاليا، هذا إضافة إلى

كوريا الشمالية وهي احدى دول "محور الشر" والتي تعمل على تطوير أسلحة نووية وصواريخ طويلة المدى⁴².

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية من أوائل الدول التي تنبعت لتلك الأهمية الجيوستراتيجية والجيوبولوتيكية للقارة الآسيوية ككل، وما تشكله فيما بعد من قوة عالمية بسبب امتلاكها لذلك المخزون الهائل من النفط، وغيره من الموارد الطبيعية والاقتصادية الهامة، ولكون ارتباط الاقتصاد الآسيوي بالاقتصاد والتجارة الأمريكيين ارتباطا وثيقا جدا.

وهذا يعني أن ما يكمن وراء هذا التحول – بحسب الإدارة الجديدة – هو أن هناك طائفة متنوعة من التهديدات والتحديات التي تواجه الولايات المتحدة في تلك المنطقة، يأتي في مقدمتها:

- النفوذ المتزايد لكل من الصين والهند؛
- احتمالات إعادة توحيد الكوريتين؛
- التوتر الهندي - الباكستاني؛
- وجود العديد من المنازعات الحدودية الإقليمية.

وهناك أربعة مجالات رئيسية للتركيز الأمريكي على مسرح العمليات الآسيوي تتمثل في:

- أ - احتواء الصين: حيث تعتبر مكانتها المتزايدة الهاجس الأكبر أمام الفكر الاستراتيجي الأمريكي، لأنها على ما يبدو ستكون الدولة المهيأة لأن تكون المنافس الأكبر على الصعيد الدولي في وقت لاحق. فهناك الكثير من الباحثين يشيرون الى ان الصين مرشحة لان تلعب دور المنافس للولايات المتحدة باعتبارها لاعبا فاعلا في ميزان القوى العالمي، يكون قادرا على وضع حد لـ "القرن الأمريكي". فمثلا أعلن المؤرخ الأميركي المعروف نيل فرغسون أن "القرن الواحد والعشرين قرن الصين"⁴³.
- ب - الحاجة إلى الاقتراب من المنطقة من أجل مراقبة التطورات في روسيا الاتحادية وجمهوريات آسيا الوسطى، سواء من أجل احتواء أي صراعات محتملة في المنطقة أو حتى استغلالها، أو للتعامل مع احتمالات وصول نظم حكم متطرفة في تلك الجمهوريات.
- ج - الرغبة في المشاركة في عملية استغلال موارد بحر قزوين، التي تحددها بعض التقديرات بحوالي 200 مليار برميل⁴⁴!
- د - امتلاك القدرة على السيطرة على حركة التفاعلات الاستراتيجية في جنوب آسيا.

وتعني الملاحظات السابقة ضرورة بسط النفوذ الأمريكي على آسيا الوسطى و هذا الخيار بذاته يمثل تحولا إستراتيجيا هاما. فهذه المنطقة التي تمتد من جبال الأورال حتى حدود الصين الغربية أصبحت على غاية من الأهمية نظرا لموقعها الجيوستراتيجي المهم و لثروات متعددة: بترول بحر قزوين، غاز تركمانستان، قطن أوزباكستان و ذهب قيرغيزستان. و بما أن القيادة المركزية الأمريكية Centcom كما اشرنا سابقا تضع يدها على منطقة الخليج وثرواتها بات من الضروري بسط النفوذ على منطقة يقدر مخزونها بثلاث مرات ما يخترنه الخليج.

⁴² قارن: محمد بن سعيد الفطيسي، الإمبراطورية الأمريكية واستراتيجية السيطرة على النفط الآسيوي. متاح على الانترنت على الرابط التالي:

<http://www.airssforum.com/f131/t3754.html>

⁴³ ورد الاقتباس عند: منير الكشور، "هل انتهى القرن الأمريكي؟"، "سياسات عربية"، العدد 22، أيلول/سبتمبر 2016، ص 134.

⁴⁴ قارن على سبيل المثال: د. أحمد ملي، التنافس الدولي على حوض قزوين، مجلة "الدفاع الوطني"، العدد 89، تموز 2014. متاح على الرابط التالي:

<https://www.lebarmy.gov.lb/ar/content/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%91%D9%86%D8%A7%D9%81%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%91%D9%88%D9%84%D9%8A-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%AD%D9%88%D8%B6-%D9%82%D8%B2%D9%88%D9%8A%D9%86>

4 - تعديل السياسة النووية، وبالذات من حيث الاستعداد لإجراء خفض من جانب واحد للترسانة النووية إلى أقل مستوى يمكن أن تسمح به اعتبارات الأمن القومي الأمريكي.

5 - تعديل أسس بناء القوات المسلحة الأمريكية إذ تم التراجع عن مبدأ خوض حربين أساسيتين في آن واحد، باعتبار أنه - وحسب إعلان وزير الدفاع الأمريكي في حينه (دونالد رامسفيلد) رسمياً أمام الكونغرس الأمريكي في حزيران / يونيو 2001 - تسبب في حدوث ضغط عنيف على الإنفاق العسكري واستخدام القوات، كما أن القوات الأمريكية لا تمتلك أسطول نقل جوي قادر على خوض الحرب في مسرحي قتال رئيسيين. أما المبدأ الجديد في حقبة بوش الابن لبناء القوات فيركز على الانتصار بصورة حاسمة في حرب رئيسية واحدة، مع الاكتفاء بتنفيذ عدد من العمليات الأصغر في مناطق أخرى من العالم. وقد شكلت هذه التحولات الركيزة الأساسية لخطة الإصلاح العسكري التي بدأت إدارة بوش في تطبيقها، وتضمنت ذات الخطة تحولات جذرية في هيكل وحجم واستخدام القوات المسلحة الأمريكية بصورة غير مسبوقة منذ عقد الستينيات من القرن العشرين.

معالم العقيدة العسكرية الأمريكية الجديدة..

رهانات على حروب غير نظامية !

شكلت استراتيجية الأمن القومي المعلنة في عام 2002 والمعدلة في عام 2006، المحطة المفصلية في إطلاق رؤيتها، حينما دعت الى ضرورة احتفاظ الولايات المتحدة بقوات مسلحة متفوقة على أي قوات مسلحة أخرى، مع تميّزها بقدرات قتالية، تعتمد على سرعة الحركة والمناورة على امتداد الكرة الأرضية، إضافة الى الاحتفاظ بدرجة عالية من الاستعداد للرد السريع، في مجابهة أي طارئ، والأخذ بالضربات الاستباقية ضد أي عدو يحتمل ان يشكل خطراً على الولايات المتحدة، حتى لو لم يكن هذا الطرف قد اظهر نية عداء أو مارس فعلاً ما يهدد المصالح الاميركية.

واستناداً الى (مايكل ت. كلار)، الاستاذ في جامعة هامشر ومؤلف كتاب **Resource Wars**⁴⁵ تقوم الهيكلية الاستراتيجية للدفاع الاميركي على ركائز ثلاث هي: المركزية الاميركية، الهيمنة العالمية، التفوق الدائم.

ويمكن ملاحظة أبرز معالم التغيرات في الاستراتيجية الجديدة، التي نعرضها هنا بتكثيف، في المحاور التالية:

1. الانفراد بالتفوق العسكري المطلق بما يحقق السيطرة الاستراتيجية الكاملة. لاشك أن قراءة متفحصة لجوهر "العقيدة العسكرية الجديدة" تكشف لنا أنها لا تطول فقط إحداث ما يسمى بـ "الثورة في المسائل العسكرية" بل توظيف هذه التقنيات الجديدة لتحقيق " تفوق نوعي على الخصم " يتيح ضمان مبدأ " السيطرة الاستراتيجية " بالمطلق. وبالملموس فقد حدّد (دونالد رامسفيلد Donald Rumsfeld)⁴⁶، وزير الدفاع الأمريكي السابق، في حديث له أمام طلاب جامعة الدفاع الوطني في 2001/1/31، جوهر العقيدة العسكرية الجديدة حينذاك بأنه يتمثل في:

- * امتلاك قوة ردع فوق أربعة مسارح معاً؛
- * الانتصار على قوتين تهاجمان الولايات المتحدة، (أي مسرحين للحرب)؛
- * خوض هجوم مضاد قوي؛

⁴⁵ لمزيد من التفاصيل قارن: Michael T. Klare, *Resource Wars: The New Landscape of Global Conflict*, Metropolitan Books, 2001.

⁴⁶ يعتبر رامسفيلد واحداً من أهم الأعضاء في ما يسمى بـ "الصفور" أو "المحافظون الجدد" وهو من المؤمنين بـ "الإمبراطورية الأمريكية" وباستخدام القوة لتحقيق الغايات. لمزيد من التفاصيل قارن:

بوعلامي العباسي، دور المحافظين الجدد في صناعة القرار الأمريكي، مصدر سبق ذكره، ص 37 ولاحقاً.

James Mann (2004). *Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet*, Viking Penguin, New York.

* احتلال عاصمة بلد معاد وإقامة نظام جديد فيها.

ويعني هذا إضفاء تعديل هام على العقيدة العسكرية التي ظلت سارية المفعول قبل هذا التحول.

وطبيعي إن ما قاله (رامسفيلد) بشأن "امتلاك قوة ردع فوق أربعة مسارح معاله دلالتها في كونه سيحمر الأمريكيين، على ما يبدو، من الاعتماد على الحلفاء الأوربيين. ولاشك أن كلام (بول وولفوويتز)، نائب وزير الدفاع الأمريكي آنذاك، كان شديد الصراحة حين قال في مؤتمر ميونيخ الأمني في آذار 2003 بما معناه إن المعارك هي التي ستحدد التحالفات.

لم يكتف (رامسفيلد)، في الخطاب المشار إليه أعلاه، بتوسيع احتمالات النزاع من اثنين الى أربعة "رئيسية تدور في مسرح عمليات" بل حاول صياغة تعريف جديد للأخطار التي يتعين على الولايات المتحدة مواجهتها. فجمع في "معسكر الأعداء" نفسه "المنظمات الإرهابية" ذات "التطلعات الدولية" والدول التي تساندها وخصوصا تلك التي يمكن أن تمدّها بأسلحة الدمار الشامل (النوية والبيولوجية والكيميائية) والتي تقوم هذه الدول بتطويرها. فالخطر - بحسب رامسفيلد- لا يتحدد فقط بمصدره بل أيضا بطبيعته. ولاشك أن قراءة متفحصة لجوهر هذه العقيدة تكشف لنا أنها لا تطول فقط إحداث ما يسمى بـ "الثورة في المسائل العسكرية" بل **توظيف** هذه التقنيات الجديدة لتحقيق "تفوق نوعي على الخصم" يتيح ضمان مبدأ "السيطرة الاستراتيجية". وطالما شدّد واضعو الخطط العسكرية الأمريكية على ان نظريتهم في "السيطرة الاستراتيجية" وجدت استجابة لكل أشكال النزاع. ويجري تطبيقها بحسب طبيعة الخصم وعدده وقوته الصناعية وبنيته التحتية وحجم مدنه ولا سيما نظامه السياسي وما المطلوب القيام به لقلبه أو تحييده. فالنظرية تترك المجال واسعا أمام التجريبية في تطبيقها. وهو ما حدث مثلا عند تنفيذها خلال حروب الخليج والبوسنة ومن بعدها في كوسوفو ولاحقا في أفغانستان والعراق.

ولم يتوقف (رامسفيلد) عند تحديد مسارح الحرب التي ستنشط فوقها قوة الردع، والتي يتعين امتلاكها في إطار العقيدة العسكرية الجديدة، بل إنه حدّد أهداف تلك القوة بما يلي :

- " حماية الأرض الوطنية والقواعد العسكرية في العالم؛
- الانتقال الى مسارح عمليات بعيدة؛
- تدمير معازل العدو؛
- ضمان أمن أنظمة المعلومات والاتصال؛
- تطوير استخدام التكنولوجيا الخاصة بالتنسيق بين القوات؛
- حماية الفضاء والترسانة الفضائية الأمريكية "

2. التخلي عن " استراتيجية الردع والاحتواء " التي حكمت السياسة الأمريكية إبان " الحرب الباردة " وتبني استراتيجية " الهجوم الوقائي ". ويعد هذا تحولا مهما في التفكير الاستراتيجي الأمريكي، وهناك حديث تفصيلي عن هذه الاستراتيجية في مكان آخر من هذه الدراسة.

واستنادا إلى تصريحات مسؤولين أمريكيين كبار فإن المبدأ الاستراتيجي الجديد **يبتعد** كثيرا عن سياسة " الحرب الباردة" التي كانت تقوم على الردع والاحتواء ليصبح جزءا من أول استراتيجية للأمن القومي تقوم على فكرة "الهجوم الوقائي". واعتبر العديد من المحللين هذا التوجه أكبر تغيير في الاستراتيجية الأمنية - العسكرية منذ حقبة أربعينات القرن العشرين حين أسس الرئيس الأمريكي الأسبق (هاري ترومان) وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) ومكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) ووزارة الدفاع (Pentagon). فهذه الاستراتيجية تبتعد عن مبدأ عمره أكثر من نصف قرن في السياستين الدفاعية والخارجية الأمريكية هو الاحتواء والردع، وتقرب من نظرية (التدخل الدفاعي) و(الهجوم الوقائي).

3. صياغة تعريف جديد للأخطار التي يتعين على الولايات المتحدة مواجهتها. فجمع في "معسكر الأعداء" نفسه "المنظمات الإرهابية" ذات "التطلعات الدولية" والدول التي تساندها وخصوصاً تلك التي يمكن أن تمددها بأسلحة الدمار الشامل (النووية والبيولوجية والكيميائية) والتي تقوم هذه الدول بتطويرها. فالخطر لا يتحدد فقط بمصدره بل أيضاً بطبيعته.

وارتباطاً بذلك باتت الولايات المتحدة تدرس احتمال استخدام السلاح النووي ضد دول غير نووية، أو رداً على هجمات بأسلحة كيميائية وبيولوجية أو عند حدوث "تطورات عسكرية مفاجئة" ذات طبيعة غير محددة.

والخلاصة، إن المبدأ النووي الأمريكي "الجديد" لا يستبعد إمكانية لجوء الولايات المتحدة قبل غيرها إلى استخدام السلاح النووي إذا ما نشأ خطر صنع سلاح إبادة جماعية من قبل خصومها.

3. استكمال بناء أدوات السيطرة العسكرية على مراكز الطاقة في العالم بدأً من الشرق الأوسط وصولاً إلى نبط آسيا الوسطى وغازها. وبهذا تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية التحكم في السياسة العالمية عبر الهيمنة الاقتصادية، في تفاعلها الوثيق طبعاً مع الدوائر الاستراتيجية الأخرى.

من المفيد التذكير هنا بأن هذه الأفكار ليست في مجملها جديدة. فهناك إدارات أخرى سعت إلى تفضيل هذه الركيزة الاستراتيجية أو تلك. لكن الشيء المهم هنا هو انه لم يصل التفكير الاستراتيجي قبل ذلك إلى بلورة هذه الركائز بهذا القدر من التماسك والوضوح والحماسة، إلى درجة يمكن معها القول أننا شهدنا "انقلاباً" في التفكير الاستراتيجي في الولايات المتحدة الأمريكية. لقد أكد مسار الأحداث خلال السنوات الأخيرة بما لا يدع الشك إن القضية برمتها تدور حول بلورة رؤية استراتيجية "أكثر فعالية"، وخلق الآليات الكفيلة بضمان تحقيق الهيمنة على العالم وإعادة إنتاجها في أحسن الظروف وأفضل الشروط. وقبل ما يقارب القرن والنصف قال الاستراتيجي الألماني الكبير (كلوزفيتز) في مسعاه لصياغة تعريف دقيق للاستراتيجية بما معناه أن الأهداف السياسية هي النهاية، والحرب هي الوسيلة.

هذه المقدمات ضرورية للحديث حول ما كان يدور عن "إستراتيجية دفاع أميركية جديدة"، ففي حينه نشرت صحيفة "واشنطن بوست" بعض تفاصيل وثيقة (إستراتيجية دفاع قومي جديدة) تدعو فيها المؤسسة العسكرية الأميركية لإنتان "حرب غير عادية" بدلا من التركيز على الحروب التقليدية ضد دول أخرى. وقالت الصحيفة إن هذه الإستراتيجية تأتي تنويجا لجهود (روبرت غيتس Robert Gates) ⁴⁷ منذ توليه وزارة الدفاع الأميركية في نهاية 2006 بعد رامسفيلد، وتبرز رأيه بأن "الأمة يجب أن تسخر مصادر القوة العسكرية والسلطة اللينة لدحر عدو معقد ومتحول".

ويمكن هنا الإشارة الى أبرز معالم هذه الإستراتيجية بطبعتها الغيتسية (نسبة الى روبرت غيتس) ⁴⁸ :

- يعتقد (روبرت غيتس) مصطلح "الحرب الطويلة" الذي اعتمده سلفه (رامسفيلد) لمعادلة القتال ضد ما أسماه "الإرهاب مع النضالات ضد الشيوعية السوفيتية والفاشية النازية". ومع ذلك تختلف إستراتيجيته غيتس، التي جاءت في سياق وثيقة (إستراتيجية الدفاع الوطني الأميركية الجديدة) التي وافق عليها في شهر تموز 2008، عن "إستراتيجية رامسفيلد" في أنها لا تركز على العمل العسكري الاستباقي، وبدلاً من ذلك

⁴⁷ روبرت غيتس (Robert Gates) وزير وزير الدفاع الأمريكي منذ 2006 حتى 2011. ورغم كونه من الحزب الجمهوري فإنه عيّن وزيراً للدفاع بعد استقالة سلفه (دونالد رامسفيلد) عند فوز الديمقراطيين بانتخابات الكونغرس.
⁴⁸ لمزيد من التفاصيل عن مقاربة روبرت غيتس قارن:

Robert Michael Gates, *Understanding the New Us Defense Policy Through the Speeches of Robert M. Gates, Secretary of Defense: Speeches and Remarks December 18, 2006 to February 10, 2008 as Released by the US Department of Defense, Arc Manor, 2008.*

تشجع القادة الأميركيين الحاليين والمستقبليين للعمل مع الدول الأخرى على "محو الظروف المعززة للتطرف". ان الاستنتاج بسيط من هذا الاختلاف: فشل الإستراتيجية التي راهن عليها بوش و "صقور" المحافظين الجدد، والبحث عن مخرج من المأزق الذي كانت تعيشه الإستراتيجية التي هندسها رامسفيلد وفريقه⁴⁹.

- العراق وأفغانستان: الجبهتان المركزيتان للصراع. نظرا لأن الإستراتيجية الجديدة كانت تجسد محاولة لتطبيق الدروس المستخلصة من الحربين اللتين خاضتهما القوات الأمريكية في العراق وأفغانستان، فإن هذين البلدين - بحسب إستراتيجية غيتس - يظلان الجبهتان المركزيتان في الصراع، وأن الحرب فيهما تمثل نوعا من القتال الذي سيواجه الولايات المتحدة في السنوات المقبلة. ولهذا فإن النجاح في هذين البلدين تعتبره الإستراتيجية الجديدة عاملا حاسما "في كسب هذه الحرب" رغم انه "لن يأتي وحده بالنصر". ولكن الوثيقة تستدرك قائلة: "لكننا لا يمكن أن نغفل عن المفاهيم الضمنية لخوض حرب طويلة الأمد وعرضية ومتعددة الجبهات والأبعاد، أعقد وأكثر تشعبا من مواجهة الحرب الباردة مع الشيوعية". علما أن بعض الباحثين اعتبر ذلك معركة مبادئ في "الحرب ضد الارهاب"⁵⁰.

- أولوية الأولويات: القتال ضد "القاعدة". بحسب هذه الإستراتيجية فإن القتال ضد "القاعدة" والإرهابيين الآخرين يجب أن يكون أولى أولويات المؤسسة العسكرية الأمريكية في العقود القادمة، ذلك أن كسب المعارك في العراق وأفغانستان لن ينهي "الحرب الطويلة" ضد "التطرف العنيف". ويعني ذلك ان "الانتصار في الحرب الطويلة ضد الحركات المتطرفة والعنيفة" سيشكل في المستقبل المنظور الهدف المحوري للولايات المتحدة.

و من الملاحظة السابقة يمكن الاستنتاج أن "البيئة الإستراتيجية" التي تواجهها الولايات المتحدة في المستقبل المنظور ستحددها "مكافحة شاملة لأيديولوجيا متطرفة وعنيفة تسعى لقلب النظام العالمي".

- إتقان الحرب "غير النظامية" بدلا من التركيز على الصراعات التقليدية مع دول أخرى. تدعو الإستراتيجية موضوع حديثنا المؤسسة العسكرية الأميركية لموازنة مخاطرتها بين التهديدات غير التقليدية و الحرب التقليدية التي تتضمن جيوشا متنافسة ومواجهات بأسلوب "الحرب الباردة". ولهذا تدعو الوثيقة الجيش الأمريكي الى إتقان الحرب "غير النظامية" بدلا من التركيز على "الصراعات التقليدية" مع دول أخرى. هنا تدعو الوثيقة الجيش الأمريكي إلى "الاهتمام بطريقة نشوء الحركات المتطرفة وسلوكها".

- تكتيكان: العصا والجزرة مع إعداد وكلاء محليين لانجاز المهمة!. ومع إقرار الوثيقة بان استخدام القوة "يلعب دورا..."، لكنها تستدرك مشيرة الى ان "من المحتمل ان تكون الجهود العسكرية لاعتقال الإرهابيين أو قتلهم ثانوية بالنسبة للإجراءات لتشجيع المشاركة المحلية في الحكومة والبرامج الاقتصادية لحفز التنمية وأيضا الجهود لفهم ومعالجة الشكاوى التي غالبا ما تكمن في قلب التمرد". وتضيف الوثيقة أنه ولهذا الأسباب، "قد يكون المكوّن العسكري الأكثر أهمية في الصراع ضد المتطرفين الذين يستخدمون العنف، ليس القتال الذي نخوضه نحن، وإنما كيف نسهم في إعداد شركائنا لحماية وإدارة أنفسهم". وتعني هذه الأطروحة ان (غيتس) ابتعد عن تركيز سلفه رامسفيلد على العمل العسكري الاستباقي ويشجع بدلا من ذلك "التعاون مع دول أخرى لإزالة الظروف التي يتولد عنها الإرهاب"، حسب ما جاء في الوثيقة.

- روسيا الاتحادية والصين ما زالا "عدويين محتملين"!. بغض النظر عن كل ما جرى من تحولات على الصعيد العالمي فإن إستراتيجية غيتس كانت تصر على اعتبار أن روسيا والصين تمثلان تهديداً محتملا للولايات المتحدة. ولهذا أكدت هذه الوثيقة على أن الولايات المتحدة يجب أن تكون مستعدة لمواجهة قدرات عسكرية متزايدة لروسيا والصين. ويوصي (غيتس)، في الوثيقة الجديدة، بإبرام شراكة مع هذين البلدين ليس بهدف خلق فضاء جديد في العلاقات معها بل للحد من بروزهما كخصمين محتملين، ولمنع تعاضم قوتيهما ك "عدويين محتملين".

⁴⁹ لمزيد من التفاصيل قارن: James Mann (2004) *Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet*, op, cit.

⁵⁰ لمزيد من التفاصيل قارن:

- تعتبر الوثيقة أن إيران وكوريا الشمالية تشكلان " تهديداً " للنظام الدولي. ويعني ذلك ان مفهوم " محور الشر " " Axis of Evil " ما زال في قلب هذه الإستراتيجية الدفاعية.

- **تفانم جملة من الصعوبات الاقتصادية وانفجارها في أزمت عديدة** تمثلت بانهيارات كبيرة في أسواق الأسهم والسندات، وتعمق أزمة القروض والرهونات العقارية، وإفلاس كبريات المصارف، وصناديق التمويل وغيرها من المؤسسات المالية، هذا إضافة الى حالة الركود التي يعاني من الاقتصاد الأمريكي منذ فترة، والمؤشرات الإحصائية التي صدرت في الفترة الأخيرة تؤكد ذلك. علما انه في أيلول/سبتمبر 2008 اندلعت اسوء ازمة اقتصادية بعد الازمة الكبرى في ثلاثينات القرن العشرين واجهتها الولايات المتحدة وامتد لهيبتها الى مختلف مناطق العالم ولم توفر احدا⁵¹.

- والى جانب العوامل والتحويلات الداخلية، **حدثت جملة من التغيرات في البيئة الإستراتيجية العالمية وتوازنات القوى** يبدو أنها ألفت بثقلها عند بلورة معالم إستراتيجية غيتس وهي:

* **حدوث تحولات في المشهد الجيو – سياسي العالمي تمثل في تنامي دور كل من روسيا الاتحادية والصين والهند** وإمكانية نشوء تحالفات إقليمية جديدة يمكنها ان تهدد أسس الهيمنة الأمريكية.

ولمواجهة هذه التحولات يبدو انه كان هناك العديد من الأهداف الآنية والبعيدة المدى التي كانت الإستراتيجية الأمريكية تسعى لبلوغها، ومن بينها:

1. **مراقبة تحركات الصين باعتبارها منافسا اقتصاديا وسياسيا وعسكريا حقيقيا**، وقطع الطريق عليها لإقامة أية تحالفات تتيح لها الإطلال منها على دول آسيا الوسطى وإيران والخليج. إذ أن ذلك بحسب الرؤية الإستراتيجية الأمريكية يشكل تهديدا لهيمنتها على مكامن البترول في هذه المنطقة من جهة، ووأد طموحاتها في السيطرة على دول آسيا الوسطى والوصول إلى الاحتياطي الهائل القابع في بحر قزوين، من جهة أخرى.

2. **قطع الطريق على روسيا الاتحادية وتحجيم دورها** الذي ما زال قائما في دول آسيا الوسطى، وبخاصة تلك التي تطل على بحر قزوين. إن سيطرة الولايات المتحدة تعني تمكنها كذلك من تحجيم أية محاولة لبناء تحالف بين روسيا الاتحادية والهند والصين، الذي يمكن أن يتنامى بوتائر قد تهدد الخطط الأمريكية الرامية إلى التواجد السياسي والاقتصادي والعسكري القوي للولايات المتحدة في آسيا الوسطى وجنوبها والمحيط الهادئ. ويظل منع تبلور محور دولي في هذه المنطقة أعمدته الأساسية الصين وروسيا (وربما الهند) أحد أهم أهداف الإستراتيجية الأمريكية وتواجدها الملموس في أفغانستان.

3. **مراقبة النشاطات النووية التي تجري في "منطقة المصالح الحيوية للولايات المتحدة"** (في بلدان عدة ومن بينها الهند وباكستان وإيران) عن كثب. ولا شك أن تعزيز التواجد في هذه المنطقة سيعين الولايات المتحدة على احتواء تلك النشاطات بحيث لا تشكل خطرا على ما تسميه بـ "الأمن القومي الأمريكي".

* **حصول تغيرات في توازن القوى في أمريكا اللاتينية مما أفضى الى تقلص ملحوظ للهيمنة الأمريكية في هذه القارة**. فقد شهد المشهد السياسي في أمريكا اللاتينية في حينه تحولات مهمة تمثلت بصعود قوى اليسار هناك ووصولها الى السلطة في العديد من البلدان من خلال الانتخابات وصناديق الاقتراع. ان هذه النتائج أظهرت انه لم تعد أمريكا اللاتينية بمثابة "الفناء الخلفي" للولايات المتحدة الأمريكية كما كان سابقا. ويبدو ان صعود قوى اليسار والقوى التقدمية الأخرى أتى ردا على مشاريع وسياسات التكيف

⁵¹ عالجت هذه الازمة بالتفصيل في عمل مستقل. لمزيد من التفصيل قارن: د.صالح ياسر حسن، الاقتصاد السياسي للازمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي – محاولة في فهم الجذور، مصدر سبق ذكره.

الهيكلية التي طبّقها صندوق النقد الدولي والمؤسسات الرأسمالية الدولية الأخرى. فقد قادت وصفات "الليبرالية الجديدة" ليس الى التغلب على الأزمة البنوية العميقة التي كانت تواجهها بلدان هذه القارة بل على العكس فان تلك الوصفات المقطوعة الجذور عن الواقع المجتمعي في تلك القارة تسببت في تفاقم تلك الأزمة وأكسبتها مديّات جديدة وساهمت في تعميق التبعية للعالم الرأسمالي المتطور⁵².

* **تعاضم نشاط القوى المناهضة للعولمة الرأسمالية.** نشأت في مواجهة العولمة الرأسمالية المتوحشة وتطورت حركة عالمية البعد Global movement تضم طيفاً واسعاً من القوى المناهضة للعولمة على امتداد العالم ، وانطلقت في نضال مباشر ضد الإجراءات الجائرة لأرباب العولمة الرأسمالية، وسعيها لسلب المكاسب الاجتماعية والحقوقية للعاملين والشغيلة والتي أحرزت بفضل نضالاتهم، مثل تقليص وإلغاء الحقوق والضمانات التي تنص عليها قوانين العمل وطرد الفلاحين من أراضيهم وتقييض الخدمات الاجتماعية. إن حصيلة التطورات على المستوى الدولي تشير إلى الاتساع المضطرد لآفاق النضال العالمي في سبيل الديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

* **انفجار أزمة الغذاء العالمية في حينه والتي مثلت أكبر تهديد راهن ومحمّل لاستقرار المجتمع الدولي،** فقد طالت هذه الأزمة الجزء الأعظم من شعوب وبلدان العالم بدرجات متفاوتة، علماً أنها تمثل القسم الظاهر من جبل الجليد الذي كان يخفي أزمت حادة متفجرة، أو على طريق الانفجار وقد يترتب عليها تغيير جوهري في الدول النامية، قد تمتد تأثيراته السلبية لتصيب بشكل مباشر حتى الدول المتطورة.

* **تعاضم المخاطر التي تواجه عمليات التنقيب عن النفط والمعادن في القارة الأفريقية** الحبلى بالتناقضات والصراعات بين "الضواري الاستعمارية" حول مناطق النفوذ والثروات الطبيعية. وبالمقابل شهدت هذه الفترة أيضاً تزايد نشاط تنظيم "القاعدة" في القرن الأفريقي، الأمر الذي دفع الولايات المتحدة إلى اتخاذ جملة من التدابير والإجراءات توجت بإنشاء قيادة عسكرية أمريكية جديدة للقارة الأفريقية بدلاً من الوضع الذي كان سائداً والذي يقسم القارة بين ثلاثة قيادات عسكرية.

* **الإصرار الإيراني في الرهان على ما سمي "الخيار النووي السلمي" وما يحمله ذلك من تداعيات ومخاطر على عموم الهيمنة العالمية للولايات المتحدة وحلفائها الإقليميين والدوليين نظراً للقناعة السائدة عند الولايات المتحدة وأوروبا وبلدان أخرى بأن إيران تطمح لحيازة سلاح نووي وبالتالي فإن خيارها النووي ليس سلمياً بل لأغراض عسكرية واحتمالات توظيفه لبناء معادلات جيو – سياسية إقليمية جديدة.** فبحسب (بيتر رودمان)، الخبير المتخصص في السياسات الإقليمية بالشرق الأوسط والخليج وكذلك بمنطقتي شرق آسيا وجنوبها، بمركز "بروكينجز" فإن "إيران ليست مشكلة أمريكية بالأساس، إنما هي مشكلة تحدي – في المقام الأول – لحلفائنا وأصدقائنا في الشرق الأوسط". ويتطلب هذا – بحسب رودمان – تنظيم إستراتيجية أمريكية مُضادة يراها من أهم أولويات تلك الإدارة.

ملخص القول، إن إستراتيجية غيتس كانت تمثل محاولة للخروج من المأزق الذي عانته إستراتيجية رامسفيلد و"صقور المحافظين الجدد"، ويتمثل مضمون تلك المحاولة في إعادة تنظيم الوجود العالمي للولايات المتحدة وتحديث أدوات السيطرة الأمريكية وإعادة ترتيب الأولويات. ويبدو ان هناك محاولة للمزج بين استراتيجيات الاحتواء المزدوج، واستخدام سياسات الحوافز والعقوبات ولكن طبعاً من دون التحلي النهائي عن العمل العسكري و "الحروب الوقائية" ضد "القوى التقليدية" و "القوى غير النظامية".

⁵² لمزيد من التفاصيل هذه الوصفات وما تركه تطبيقها من آثار كارثية في هذه البلدان، وليس وحدها طبعاً، قارن: صالح ياسر حسن، الخصخصة و "الإصلاحات الاقتصادية" بين خيبات العقيدة ورهانات الواقع – محاولة في نقد الخطاب والممارسة، مصدر سبق ذكره، ص 356 – 420.

والخلاصة، إن أبرز ملامح التحول في النظام الدولي بعد "الحرب الباردة" وأحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001 هو أن الفكر الإستراتيجي الأمريكي قد تغير كلية من حيث توصيف السلوك السياسي الأمريكي في البيئة الدولية الجديدة التي تركز على قوة وهيمنة القطب الواحد ممثلاً بالولايات المتحدة بكل إملاءاته وقواعده من جهة، وإعادة النظر في الإستراتيجية التي سيعتمدها هذا البلد تجاه أعداء وخصوم جدد من حيث الوسائل والتكوين من جهة أخرى⁵³.

فمع نهاية "الحرب الباردة" كُسر المنطق الأيديولوجي، وأستبدل بالمنطق الأحادي السائد الذي بدأت تنزعها الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أصبح "النظام الدولي" يتسم بالعلومة بطبعتها الرأسمالية والهيمنة الأمريكية، وكليهما كانتا قناة رئيسية لنقل ونشر مبادئ وقيم الليبرالية الجديدة بطبعتها الأمريكية في الأساس.

ويرى بعض الباحثين ان العناصر الأساسية التي تضمنتها (استراتيجية الأمن القومي) ومغزاها بالنسبة للروح العسكرية الأمريكية بعد أحداث الحادي عشر من ايلول/سبتمبر تتمثل فيما يلي⁵⁴:

- إيمان عميق بضرورة تأمين قوة عسكرية لا مثيل لها.

- التزام باستمرارية التفوق العسكري الأمريكي أطول مدة ممكنة.

- استغلال فوائد هذه القوة إلى الحد الأقصى عبر خطة تحرك شامل.

ان كل هذه الوثائق والخطابات من طرف الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) ووزير دفاعه حينذاك شكلت الأساس النظري لبلورة مفهوم "الحرب الوقائية" ضمن إستراتيجية الأمن القومي الامريكي.

هكذا إذن برزت فكرة الحرب الوقائية كإستراتيجية أمريكية جديدة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، وتبنتها الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس جورج بوش الابن كعقيدة ونظرية معتمدة في السياسة الخارجية، بعدما تم نشرها من قبل البيت الأبيض في سبتمبر 2002 ضمن وثيقة إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة، فهي تعبر- مفاهيمياً - عن سياسة أو إطار عمل، تحتفظ فيها الولايات المتحدة بـ "حق" مهاجمة دول تعتبر طامحة لأن تشكل تهديداً أو منافسة محتملين على الصعيد العسكري⁵⁵.

كما تعتمد أساساً على الافتراض بأن العدو سيبدأ الحرب في المستقبل القريب، وبالتالي ستصبح ملائمة جداً للطرف الذي يباشر بها. وبمعنى أوضح، إنها تعبر عن القيام أو التحول في الرد على هجوم فعلي، إلى المبادرة بالهجوم لمنع هجوم معاد محتمل من قبل خصوم الولايات المتحدة. وتكمن النواة الأساسية للحرب الوقائية ضمن وثيقة إستراتيجية الأمن القومي، في الجمع بين تهديدين بالغين الخطورة من منظور أمريكي وهما "الدول المارقة" و "الإرهابيين" من جهة، وإمكانية حصولهم على أسلحة الدمار الشامل من جهة أخرى.

⁵³ قارن: بن عمار امام، الحروب الوقائية في الفكر الاستراتيجي الامريكي...، مصدر سابق، ص 64.

⁵⁴ غسان سلامة، أمريكا والعالم، إغراء القوة ومداهما، ترجمة مصباح الصمد، الطبعة الثانية (بيروت: دار النهار، 2006)، ص 89.

⁵⁵ يبدو ان ثمة التباس مفاهيمي يحتاج الى توضيح. وكما اشرنا سابقاً، فقد عرفت الاستباقية على انها الهجوم على دولة هي على وشك القيام بعمل عسكري. فمنذ وقت طويل سمح القانون الدولي والممارسة العملية بمثل هذا التحرك لإحباط خطر فوري جائم وواضح.

في حين ان الوقائية عرفت على انها إعلان الحرب ضد دولة يمكنها أن تمثل خطراً في لحظة مستقبلية معينة. ويتصعبها لحملتها بعد الحادي عشر من ايلول/سبتمبر، خلطت ادارة بوش بين هذين المفهومين، وذلك باستعمالها كلمة "الاستباقية" لتبرير ما تبين انه حرب وقائية ضد نظام صدام حسين مثلاً. ان سياسة واشنطن الاستباقية هذه خلقت صورة الشرطي العالمي الذي ليس له مرجع أعلى والذي يقتحم البيوت ساعة يشاء!

ملخص القول أن التطور الرئيسي في الفكر الاستراتيجي الأمريكي بعد انتهاء "الحرب الباردة" ووقوع أحداث 11 ايلول/سبتمبر 2001، يتمثل في تبني **معادلة ثلاثية جديدة** تقوم على ما يلي:

- تحول إستراتيجية الأمن القومي الأمريكي من الاعتماد على مفهومي "الردع" و "الاحتواء"، إلى الاعتماد على مفهوم "العمل الوقائي" باعتباره الركيزة الأساسية في هذه الإستراتيجية؛
- تطوير بنية القوات المسلحة الأمريكية والقوة العسكرية عموماً؛
- الاستفادة إلى أقصى درجة ممكنة من التطور في التكنولوجيا العسكرية.

وفي حينه، اشار الخبراء والباحثون الأميركيون الى أن الولايات المتحدة تحتاج إلى **خمسة أنواع** من القدرات العسكرية لتنفيذ هذه الاستراتيجية:

- 1- **القدرات النووية للردع** ولحماية الولايات المتحدة وحلفاءها من أي هجوم.
- 2- **القدرات الأمنية** الداخلية.
- 3- **القدرات التقليدية** الضرورية للانتصار في الحروب الأساسية.
- 4- **قدرات الانتشار** والتدخل السريع.
- 5- **قدرات على تقديم المساعدة الإنسانية.**

وبهذا المعنى فقد أصبح استباق العدو والحرب الوقائية فكرة مكرسة في السياسة الأمريكية، بل أكثر من ذلك أصبحت جزءاً من استراتيجيتها الجديدة. في استراتيجيتها السابقة كانت الولايات المتحدة تقوم بحروب إما بالأصالة وإما بالإنابة، ولكن بغطاء من "الشرعية الدولية"، إلا في بعض الحالات في أمريكا اللاتينية التي كانت تعد في أثناء "الحرب الباردة" مجال الولايات المتحدة الحيوي. أما وبعد صدور هذه الوثيقة، التي تعد بمثابة **انقلاب استراتيجي**، فقد كرست الولايات المتحدة فكرة التدخل المباشر وبقرار أمريكي صرف. فالولايات المتحدة ترى أن الحروب الإستباقية تعد، منذ هذه اللحظة فصاعداً، قراراً أمريكياً تمليه مصالح الأمن القومي وضرورته!! وبوضوح أدق فإن الولايات المتحدة لم تعد بحاجة إلى الحلفاء والأصدقاء، أو حتى العملاء وخاصة بعد الحرب على العراق في 2003 وكذلك لم تعد العناصر الثقافية والاجتماعية للتدخل الأمريكي منفصلة عن العناصر العسكرية أو عن الإقتصاد⁵⁶.

وإذا فكنا استراتيجية "الحروب الاستباقية" الأمريكية الى مكوناتها أمكننا القول أنها تقوم على فلسفة سياسية تفترض وجود خطر محتمل من عدو مجهول يتهدد الأمن القومي للولايات المتحدة في كل لحظة، كما تقوم على افتراض أن لا يكون التهديد حاصلًا بالفعل من دولة او منظمة لكي تخاض ضده/ضدها الحرب الوقائية، وإنما يكفي ان يتم تصوره من قبل مراكز التخطيط الاستراتيجي في (البيت الابيض) و (البنناغون) للمبادرة الى تلك الحرب.

وبهذا يبدو جلياً عدم مشروعية الحرب الوقائية في جميع أبعادها القانونية والأخلاقية، لأنها تسعى إلى تفسير القوة من خلال الرد ضد التهديد أو العدوان المحتمل. وقد أنجزت دراسات عديدة خاصة في هذا المجال، سعى أصحابها إلى تحريم الحرب الوقائية، واعتبارها خارجة عن نطاق الشرعية الدولية⁵⁷.

ملخص القول، أن التطور الرئيسي في الفكر الاستراتيجي الأمريكي، يتمثل في تبني **معادلة ثلاثية جديدة** تقوم من ناحية على تحول إستراتيجية الأمن القومي الأمريكي من الاعتماد على مفهومي **الردع والاحتواء**، إلى **الاعتماد على مفهوم العمل الوقائي** باعتباره الركيزة الأساسية في هذه الإستراتيجية، إلى جانب تطوير بنية القوات المسلحة الأمريكية والقوة العسكرية عموماً، ومن خلال الاستفادة إلى أقصى درجة ممكنة من التطور في التكنولوجيا العسكرية.

⁵⁶ برهان غليون، العرب وعالم ما بعد 11 سبتمبر، مصدر سبق ذكره، ص 26.

⁵⁷ من بين الاعمال المهمة في هذا المجال هناك كتاب Michael Walzer الموسوم "الحروب العادلة وغير العادلة". لمزيد من التفاصيل انظر: